محمود تيمور

شمس وليل



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٣٢٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشاعري بالحلمية الجديدة

شمس وليل

تأليف

محمود تيمور

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٢٣٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

إهداء

إلى أعزائى الصغار :

« محمود » ، و « على » ، و « خديجة » ، و « زينب » ...

فى وجوهكم الوضيئة ، تتجلى لى مطالع وحى وإلهام . ومن بسماتكم ، يترسَّل على فؤادى برد وسلام .

وفى ظل طمأنينتى بكم ومحبتى لكم أقيد ما يعن لى من حديث نفسى ونجوى .

فما أجدر أن يزجِىَ إليكم جَدُّكم صحائفَه تلك ...

هديةَ ردٍّ للجميل ! ...

محمود تيمور

الرحيل

١

لم يكن على بالنا أن نرتحل إلى هذه البقعة من الأرض « بقعةِ « الشمس فى منتصف الليل » فما فكرنا فيها يوما ، ولا اعتزمنا فى شأنها أمرا ، وإنما نجمت الفكرة — فى هينة ورفق — يوم خرجنا إلى المطار فى ضاحية « القاهرة » ، نودع أحبّاء لنا فى سَفرتهم إلى بلاد الشمال ، يقضون فيها بعض وقت ، تاركين عندنا وديعة غالية هى صغير عزيز عليهم وعلينا ، فوعدناهم أن نرده إليهم بعد بضعة أشهر ، والصيفُ على الأبواب .

وانقضت الأشهر بسلام ، ناسخة ظلال الربيع مُؤْذنة ببوادر الصيف ، فألفيتُنى أتخذ الأهبة للرحيل ، وفاء بالوعد ، ووقفت أمام الحقيبة المعهودة — حقيبة الطائرة — أنفُض عنها الغبار ، ثم قصدت — أولَ ما قصدت — إلى صوان الثياب أجتذبُ « حُلة السفر » تلك الحلة التى لا ألبَسها إلا حين أتخذ الطائرة مطية لرحيل ...

يرجع عهدى بهذه الحلة إلى المرة الأولى التى ركبت فيها الجو ، فبلغت برّ السلامة والأمن ...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحتفظ بتلك الحُلة أيّما احتفاظ ، وأحرص عليها كل الحرص ، وأخصها بالرعاية والتعهد ، مدّخرا إياها ليوم أتضيّف فيه الطائرة ، ولا أكاد ألبسها فى غير ذلك اليوم ، ضنًّا بها على الابتذال .

وإنى لأعترف جهرة بأنى متباشر بهذه الحلة ، تسكن إليها نفسى ، ويقع فى روعى أنى ما دمت أرتديها فلن يصيبنى من مخاطر الطيران ضير ... هى على جسدى درع حماية وصون وأمان ، تردّ عنى نزق الرياح ، وتؤلف بينى وبين حرس السماء

بيد أن الحلة يدركها ما يدرك كل كائن على وجه البسيطة ، فهى تضمحلّ على الأيام ، وإنى لأراها ترثّ وتبلى رويدا رويدا ، فأرى معها عمرى تلحقه الرثاثة والبلى ، ولكأنها « الجلد المسحور » الذى[1] وصفه « بلزاك » فى قصة له ؛

---

١ — قصة « الجلد المسحور » لبلزاك تتلخص فى أن شخصا اشترى جلدا سحريا ، كلما مر عليه الزمان انكمش وتقلص ، فلشدة تعلق صاحبه به أصابه فى =

يتناقص ويتكمش على مهل ، فيعترى عمرَ صاحبه من التناقص والتكمُّش مثلُ هذا القدر .

ما لى أصل حياتى بحياة هذه الحلة ؟ ...

وما لهذا الوهم يهيمن على مشاعرى ، وأنا أعلم علم اليقين أن العقل يأباه ، بل يصمُه بأنه سُخف وهُراء ؟ ...

ولكنه الضعف البشرى الذى فطرُنا عليه ، وسحر الأساطير الذى خضعنا له ، حينا نتشاءم ونتطيّر ، وطورا نتباشر ونتيمن ، ولنا نحن الشرقيين فى ذلك أبلغُ العذر ، فهذا ميراثنا منذ الحِقَبْ الخوالى ، يحيلنا أطفالا أمام سطوة القدر ... ذلك السلطان المحجّب المغيّب ، الذى نحسه دون أن نراه ، ونرهَبُه دون أن يُسفر لنا محيّاه ، يسترق إلينا الخُطا ، متسربا فى أعماق الوجدان ، يكشف الخبايا والأسرار

حقا نحن حيالَ هذا القدَر أطفال ...

= بدنه وعمره المكماش وتقلص ونصر ... وذلك رمز للضعف البشرى ، وخضوع عقل ابن آدم للأساطير والخرافات والأوهام ! لعدة خونه وننزعه من مصيره المحتوم ! ...

ولكن ما بالنا نأنف أن نكون « أطفالا » على مدى العمر ؟

وما لنا نكره أن نحيا فى رحاب الأوهام والأساطير ، مادمنا ندرك بها الوطر من سكينة النفس وراحة الضمير ؟ ...

مرحبا بكل وسيلة تكفل لنا أن نصيب الأهداف ! ..

وتناولت الحلة على بركة الله ، أمسح عليها بيدى ، كما أمسح على رأس حبيبٍ ألاطفه ، مُعدًّا إياها لساعة الرحيل

٢

احتوانا المطار فى وسط الليل ، فبرزنا إلى الساحة الشاسعة ، مهبطِ الطائرات من كل فَجّ ، ومَرْقاها إلى كل مَرْمَى ...

وقفت أرجعُ البصر حولى يَهولنى ما أرى وما أسمع ؛ لا تكاد تصعّد طائرة حتى تصوّب أخرى ، والأزيزُ متواصل يترسَّل على أسماعنا نغمةً عذبة ، نغمة تُرْضى غرور الإنسان ، ذلك الكائن العجيب الذى ينزع به الطمّاح كل منزع فهو اليوم يقفُ فى زهوٍ وخُيَلاء ، ينظر كيف استحال بساط الريح فى عالم الرؤى والأحلام ، مركبة من حديد ونار ، تخفق للعيان على رؤوس الأشهاد .

فى أكناف السماء نجوم من فوقك تبصّ ، ومن الطائرات نفسها نجوم حولك تختلج ، وعلى جوانب الأرض نجوم كهربية منتثرة تلتمع ... إنها مصابيح الطبيعة ومصابيح الإنسان ، تتزاحم وتتداخل ، حتى لا تميز بين بعضها وبعض ، وفيم التمييز وقد نُصبت كلُّها فى السماء والأرض لخدمة البشرية ،

مناورَ هـــداية وتبصير ؟ ...

وعلى مقربة منا حلّت طائرة ، فمال عليّ صاحبي — مرشدُ المطار الأمين — يقول

هذه طائرة من « الهند » يقودها فتىً شجاعٌ ، لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، يُدعى « الخان » ، وله فى مغامرات الطيران جولات تُضرَب بها الأمثال

وأرْدف صاحبي يقول :

لقد بلغت الهند على حداثة عهدها بالطيران شأواً بعيدا فى مغالبة الجو ، وكان لها فتحٌ مبين فى ذلك الميدان .

إيه أيتها الهند العزيزة ، ذاتُ الحضارة الشرقية التالدة ! ... لقد نضوتِ عنك اليوم سُبَاتا طال به الأمد ؛ فلم تعودى « هند » الغطاريفِ من أقيالٍ يرفُلون فى الدِّمَقْس ويكيلون الذهب ، بل أصبحتِ « هند » الغطاريف من أقيالِ الطيران ... لقد نزعْتِ عنك غلائلَ « ألف ليلة وليلة » واتخذتِ إهاب الحياة الجديدةِ فى عصر حضارة الغرب ... سيرى أيتها الشقيقةُ الكريمة ، بل طيرى ... إلى العلاء ! ...

وأذّن المؤذّنُ بالرحيل ، فتدانيْنا من طائرتنا السّويدية الأنيقة ، لاتخلو خُطانا من تخوُّف وحذر ... وكنا في هذه السَّفرة أسرة تضم ثلاثة من أعزائنا الصغار ، فمثلت حيالهم أتطلع إلى وجوههم الوسيمة الغضة ، مستمدا منها طمأنينة الروح وصفاء الشعور ، فما لبثت مخاوفى أن تزايلَتْ ، وأقبلتُ على الطائرة فى خَطْو جسُور !...

هيهات أن يُحوّم الخطر حيث تُشرق هذه الوجوه النضرة البريئة

يا صغارى الأحباء !...

ياملائكةَ الرحمة !...

بكم ألوذ من كل سوء ، ومنكم أستلهم ثقة النفس ، ورَباطة الجأش ، وسكينة الضمير !...

٣

التقَمَنا جوفُ الطائرة ، وأُطفئت المصابيح ، وتألقت أمام الأعين هذه الكلمات :

التدخين محظور ! ... ليشدّ كل منكم نطاقة ! ...

وجعلت أجنحة الطائرة تدفّ ، فينبعث لدفيفها دويّ .

وأرخيْت جفنيّ .

هأنذا ألقي أحمال المتاعب عن كاهلي ، وأتخلى عن الشواغلِ والتصاريف التي تحوطني ، تاركا إياها خلفي ، ملتمسا صفو الراحة والجمام ، بادئا — بحق — عطلة الصيف وإجازةَ العام ! ...

ما أطْيَبَ الدعةَ بعد التعب ! ...

ما أجمل أن يستقبل المرء فترة لا يشوبها جد العمل ، وكد الفكر ، ومجالدة الأعصاب ! ...

ما أسعد المرءَ بأن يتخفف مما يَشُوده من الغاديات الرائحات في عيشته الراضية أو غير الراضية ، وفي نظامها الراتب

الدائب ، فينطلقَ من إساره وقتا إلى الدنيا العريضة ، وقد فصم ما بينه وبين جذوٓر عتيقة متغلغلة ، جذور تشُده إلى بيئته التى يحيا فيها ، وجوه الذى يتنفس فيه !...

إنه ليخفّ إلى عوالم أخرى غير عالمه : ليجتلى مشاهد جديدة لم يرها من قبل ، ويتملى وجوها غيرَ التى ألف أن يُطالعها صباحَ مساءَ ، ويصغى إلى نغمة طريفة تذهب عنه الضجَر بنغْمَته المطوّلة التى لم تعد تثير فيه انتباها ولا هزة

إنه لَينْسرِح فى بقاع تُشْهِده الشمس فى حُلةٍ قشيبة ، وتُريه الليلَ فى إهابٍ ليس له به عهد ، وتَنشِقُه من نفحات النسيم ما يُهدى إلى صدره الاطمئنان والانشراح !...

لكأنه بذلك يدنو من حوضٍ مرْمرِىّ عظيم ، فينغمسُ فى ماء من ذَوْب اللُّجَيْن ، يُميط عن النفس صداءة الهموم ، ويجلو عن العين غِشاوة التبلد والركود .

حقا ما أطيبَ هذا كلّه !...

ما أجمله !...

ما أسعدَ المرءَ به !...

إنى لأفكر فيه وأتمثله ، وأنا أقيد هذه الخَطَرات ، فى تلك الساعة الساجية ، والرفاقُ من حولى نيام أو مُتناومون ، والظُلمة الرقيقة تبسطُ علينا شَملة هفهافة تلتبس بها حقيقة الزمن ؛ فلا ندرى فى أية ساعة نحن على وجه اليقين !... أهذه مخايلُ الفجر تسبق انبلاج النور الوهاج ؟ ... أم هى قتمة الغروب يلوح وراءها الليلُ المُقمِر البهيج ؟ ...

تلك ساعة يقف فيها النور والظلمة على الحياد ، أوهما يقفان وجها لوجه متأهِّبَيْن للعراك ، مرتقبين اللحظة المُواتية ...

فلأدعهما يتأهبان ويرتقبان ، ولأستمتع بهذا الصفاء الذى تُسبغه على نفسى تلك الهدنة بين ضجة النور إذا سطع ، ووحشة الظلام إذا أطبق ! ...

فى ذلك الجو الساجى ، حيثُ الطائرةُ تحلق فى أجواز الفضاء أحس بأنى قد تحررت من كل قيْد ، وأن نفسى تهيم مع الطائرة فى مَسراها ، تنعم بعالم حر طليق ...

عالم حر طليق ... ؟ !

يخيل إلىّ أن هاتفا يهمس فى أذنى ، يقول :

« أين ماتزعم لنفسك من حرية وانطلاق ؟ ...

إنك لَتُمنيٌّ نفسك بأن ترى الشمس فى حُلة قشيبة ، والليلَ فى إهاب طريف ، وأن تستنشى النسيم بديع النفَحَات ، وأن تشهد من مُتع العيش ألوانا كلُّها تجديد وافتنان ، ولكنْ ثق بأنك لن ترى منّ ذلك كله إلا ما تريك إياه عينـاك ، ولاتحس فيما تجد من ذلك كله إلا ما تشعرك إياه نفسك ، وعيناك هما هما لا تتحولان ، ونفسك هى هى لاتستبدل بها نفسا سواها ... فأنت كما أنت ، أو كما كنت — وإن بُدّلتَ أرضا بأرض ، وسماء بسماء — موصولٌ أبدا بماضيك الحى ، مشدود دائما إلى جذورك العتيقة ، تحمل أثقالك حيث تكون ...

ألست وأنت على عتبة هذه الحرية المزعُومة تمسك بالقلم ، أو بالأحرى يُمسك بك القلم ، آخذا بخناقك ، فيريدكَ على أن تملأ هذه الصحائفَ التى بين يديك ؟ ... ما أشبه جَلستَك هذه فى جوف الطائرة العابرة : تفكر وتُسطّر ، بجلستك المألوفة فى ذلك الرُّكن من دارك ، تتأملُ وتسجّل ! ...

فأنت أنت — كما كنت — سجينُ فطرتك ، أسيرُ نفسك ،

ينساق بك هواك من حيث تدرى ولا تدرى ، غَيْر قادر على فَكاك .

لاتحسبَنَّ ما يدور بخلدك من أفكار فى هذه اللحَظات من وحى البيئة التى عاوَتْ إليها بطائرتك ، فما هو إلا قديم قِدمَ نفسِك ، ناجمٌ من أغوار سريرتك ، يحمل بذوره مما تسمّيه أثقالَ عيشك وأغلالَ حياتك ! ...

كل ماتشهَدُه فى قابلِ أيامك تراه بعينِ ماضيك ، وتُلوِّنه بأصباغ بيئتك فى صميم وِجدانك من هذه البيئة شعاعة من ضوئها باقية وغشاوة من ظلمتها ثابتة ، وإنها لتترسب فى دمك ، وتتسرب فى حسك ، وتكسوك صبغتها رضيت أوكرهت .. فإذا استطعتَ أن تتبدّلَ من ثوبك ثوباً آخرَ ، فما أنت بمستطيع أن تتبدلَ مثلَ ذلك من أديم جسمك ! ...

مهما تتغيرْ بك الأرض ، ومهما تتقلبْ بك السموات : فأنت فى إهابك ، ربيبُ أمسك ، نسيجُ بيئتك ، تحمل همومك وأوهامك بين طواياك . وإن ترامى بك طائر الرُّخ إلى بلاد الواقواق ! ...

متاعبك جميعها صُرّة على كتفك ، لا تملك أن تلقيها عنك !...

إنها كالحدبة فى ظهر الأحدب ، يحملها على كُرهِ ، ليس له إلى النجاة منها سبيل !...

أرأيت إلى الغطّاس يحتويه صندوقُه الزجاجى ، فيضربُ به فى الموج حتى يمسّ قرارة اليمّ . وما هو ببالغ من الموج شيئا ولا هو مصيبٌ من الماء بلّة ، ترى عينُه اليَم وهْماً كأنها ترى ألواحا من الصــور ، أو تتمثل ألوانا من التّهاويل ... فهو حبيسُ صُندوقه الزجاجى ، وإن تقاذفت به الغَمَرات .

شبيهٌ حالك بحال هذا الغَطّاس تنتقل وترتحل جوّابَ آفاقَ ، سباقَ غايات ... ولكنك حبيسُ نفسك لا محالة ... »

أصغيتُ إلى حديث الهــاتف ، وأنا فى حَيْـرة وقلَق ، ولكنى ما لبثتُ انهتفتُ به أُجيبُه :

« ياصديق الفيلسوفَ المجهول ... ربما كنتَ على صوابٍ فيما زعمتَ ، ولكنّ قولك هذا لا ينفى أنى فى الطائرة أعبُر الجو وأنى مقبلٌ على جـــديد طريف يُثيرُ الهزة ، ويبعث النّشوة ، فإن لم يكن يُنسينى ، فإنه لاريبَ يُسلّينى ...

فلأعدّ نفسي لهذا الجديد الطريف . ولأستمرئه بقدر ما يتسعُ له الذّرع ، ويأذَنُ به الجُهد .

هذه متعة تهيئها لى الأقدار الموالية ، فلماذا توسوس لى ، وتشقشق حولى ، لتفسد علىّ ما أعالجُ أن أصلحَ من أمرى ؟ ...

إليكَ عني ! ...



وأشرعت البصر من الطاق ، فألفيتُ الطائرة تسرى فى فضاء وسيع تغشاه ظُلالة من ليل وديع ، والريحُ من حولها رُخاء لا تقلق الخطو ، ولا تعكر الصفو ، فكأن الطائرة فى تسيارها فكرة نشوى تخفق فى فردوس الأحلام .

ورجع بى الخاطرُ إلى المطار ! ...

إلى « مصر » ! ...

لم يعد لهما من أثر ...

هأنذا أحسُّ من فورى شعورَ وحشة وانقباض ...

لقد أيقنت الآن أنى قد فصلتُ عن الوطن ... بعُدت بينا الشُّقة ، واستبانت بيننا الفُرقة ، فهو منى قَصِىّ ، أتودد إليه معالمه بالذكريات والشعور .

وطنى ! ...

فيم هذا الأسى على فراقك ؟ كأنك إنسان حىّ ، يجرى فى عروقك من الدم ما يجرى فى عروقى ، فبينى وبينك حُرمة النسب

ولُحْمَة القُربى ؟ ...

فيم هذا الحنين إلى لِزامِك ، كلما جدّ بي الرحيل عنك ؟

ماخطبُ هذه الدّمعة يَنْدَى بها جفني حين تختفي عني مَشارِفُك ؟ ...

لكأني بك تشدُّ نِياط قلبي إليك بأمراسٍ ، فكلما نأيت عن أرضك النوَى عليّ القلب ينفطر من وَجْدٍ وتَحْنان ...

ما أنت أيها الوطن ؟ ...

وماذا فيك من سرٍّ يهيجُ كوامنَ الشَّجَن ؟ ...

وهل أنت أولا وأخيرا إلا أرضٌ وماءٌ ؟ ...

وهل الدنيا على رُحبها واختلاف بقاعها إلا مثلكَ : برّ وبحـــر ؟ ...

حقا أنت قبضة من تراب ، وغَرفةٌ من ماء ، ولكنهما يختلط بها عبيرُ النفْس ، وغَرفة يمتزج بها ذَماء الروح ... فيهما تسكن البذرة الصميمة لمعالم الشخصية المتميزة ، وعليهما يتجلّى الطابَعُ الأصيل لما نحنُ عليه من ملامحَ وسِمَات ! ...

ما أنت أيها الوطن إلا أنا في أجلّ المعاني وأرحبها ، وما أنا

إلا أنت أيها الوطنُ فى أدقِّ تلك المعانى وأضيقها .

لست أنا إلا بضعةً منك ، انفصلتْ عنك ، ولكنها تدور فى فلكك بجاذبيّتك ، وستظل فى مـــدارها حتى يحينَ الحَيْن ، فتفنى فيك ...

منك انبثقْتُ ، وإليك أعود ... لا مفاصلة بيننا ولا انفصام ! ...



وطفقتُ أرُوض على النوم عيني ، ولكن تنافر جفناى ، وتواثبت بي الخواطر ، فظللت يقظانَ تتوالى عليّ مشاهدُ من سوالف أسفاري ، حين كان العالم لا يعرف للانتقال وسيلة إلا الباخرة يعبُر بها متن العُباب ! ...

واستطرد بي التفكير إلى الماضي البعيد ، أستشف فيه مشاهد السفر ووسائل الانتقال على وجه عام ، وأخذت أوازن بينها وبين ما صِرْنا إليه في عصرنا الحاضر . وساءلتُ نفسي : هل تطورت نفسية الإنسان وعقليتُه تبعا لتطوّر وسائل الانتقال ؟ وهل ثمة ارتباطٌ بين مُعدّات السفر وبين مَنهَج الحياة وأسلوب العيش وطابَع التفكير ؟ ...

قديما كان الإنسان يتخذ الدواب في الأسفار والتنقّل ولا يجرؤ على الخروج من بلده إلى بلد آخر إلا في قافلة يلوذ بعضها ببعض ، وينتصر بعضُها ببعض ؛ إذ يكون لها من التجمّع قوةٌ تستعين بها على وعْثاء الطريق وما فيه من

مخاطر !... وما كان المرء ليُفارق بلده فى الأغلب إلا عن اضطرار

ومنَ ثمَّ تباينت الممالك والدول ، لا ارتباط بينها إلا فى النَدرة ، ولا تعامُلَ إلا بالقدر الضئيل !... وعلى مثل ذلك كان أمر الشعوب . يكاد كل شعب يستقلُّ بنفسه ، ويكتفى بعيشه ، لا يعرف من شأن جيرانه إلا ما يتناقله الرحالون والتجار وذوو المغامرات ، ومعظم ما يتناقلون أوهامٌ وأباطيلُ ... فلا غرو أن يستقر فى ذهن كل شعب أنه شعب الله المُختار ، وأن بلده أمُّ الدنيا وواسطةُ العِقد ... فاشتدت بذلك نزعة الاستعلاء القوْمىّ ، وغالى كل بلد فى التجمُّع والتكتُّل ، حتى اصطبغتْ تلك العهودُ بصبغة الفردية والأَثَرَة والأنَفَة من التعاون ، ولم تقتصر هذه الصبغة على الشعب فى مجموعه ، ولكنها تدسستْ إليه فى مختلف فئاته وطوائفه ، فتحزَّبت زُمَر ، وتعصبت طوائفُ ، وانتقلت العدوَى إلى الفرد وحدَه ، فأصبح يستشعر لنفسه من الخصائص والمزايا ما لا يستشعرُ لسائر خَلق الله !...

لا يغرّنك ما تطالعك به صحائفُ التاريخ من قيام الإمبراطوريات ، التى تترابط فيها البقاعُ وتتحد البلدان ، فما جمع ذلك بين أمم ، ولا وحّد بين بلاد ، وإنما قام عليها حاكم واحد تسنده السلطة ؛ على أن أمراء الأقاليم كان لهم من الاستقلال بالأمر ، ما يشبه سُلطان العاهل الأكبر . وكثيرا ما ارتصد هؤلاء الأمراء للفرصة السانحة فإذا هم يشقّون عصا الطاعة ، ويأبون أن يكونوا تبعا لأحد ! ...

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، بما شمل العالم من مخترعات فى وسائل الانتقال ، ولاسيما الطيران ...

بفضل هذه الوسائل تقاربت الأمم ، وتعارفت الشعوب ، وتزايل ما كان عالقا بالأذهان من أساطيرَ وأباطيلَ ؛ فانكشفت الحقائق ، وانتشرت فى سرعة البرق ، ولم يعد كل مواطن يعُدّ بلده أمّ الدنيا وواسطة العقد ، إذ تشابكت المصالح ، وتشاركت الأهداف ، وتُبُودلت المنافع ، وأيقن الناس بحاجة بعضهم إلى بعض ، فجعلوا يؤمنون بفضل التعاون ، ويتنسّمون روح الأُخوة الإنسانية فى أطراف المعمور .

فإذا كان طابَع العُهود الغوابر — قبل اختراع وسائل الانتقال الحديثة — طابعَ الأثرَة والعُزلة والتكمُّش ، فلا جِدال فى أن طابع العهد الجديد هو طابع النُّزوع إلى التعاون المشترَك بين الدول بعضها وبعض ، وكذلك هو بين أبناء الوطن الواحد على اختلاف الطوائف والشِّيع .

وكان التنقل قديما يتَّسِم بالبطء والاتِّئاد ، ومن ثَم أصبحت سِماتُ التفكير والعقل هى التروية والأناة ، وهى الفحص الطويل قبل البتِّ والحَسم ، ولم يكن للزمن هذا الحسابُ الذى نقيسُه به اليوم ، فالوقتُ منفسح أمام المسافر ليشهدَ ما يجوزُ به فى تمهل ورفق لايقنع بالطُّوقة، ولا يسكُن إلى الإجمال !...

فأما الآن فالمسافرُ بالطائرة لا يَأذن له وقته بالتراخى فى المشاهدة ، والإمعان فى التفاصيل . فاضطره ذلك أن يُرهف من فطنته ، ويُذكى من يقظَته ، ويتوخى الجوهرَ والصميم ، حتى يلتقط أكثر ما يلتقط فى الوقت القصير والفرصة الخاطفة ، ومن ثَم اكتسب المسافرُ سُرعةَ الانتباه ، وقوة الملاحظة ،

وتعوّد البتّ فى الأمور فى غير تردُّد ، واستخلاص النتائج فى غير إرجاء وتعلم كيف يستصفى زُبدةَ المتعة فى طرْفةَ عين ، حتى لا يرجع بصفقة المغبون .

وكان المرتحل قديما إذا أزمع السفرَ حمل من المتاع ماشاء ، فلو قدر أن ينقُل معه داره لفعل ؛ فما كانت السَّفرة مغيبَ أيام أو أسابيعَ وإنما كانت الرّحلة تمتد شهورا وسنين ، وربما خرج المسافر من وطنه شابًّا فلا يعودُ إليه إلا وقد تشيَّخ ، وقد يترك الظاعن بلده . فيكادُ يودعها إلى غير رَجعة ، يأسا من امتداد العمر به حتى يثوبَ وسوء ظن بما عسى أن يلحقه من أحداث الطريق . وكثيرا ما يستقر به المُقام فى البلد الذى ينتقل إليه ، فيتزوج فيه ويُنجب ويتخذَ منه مهجَرا لا يبرحُه ما عاش

ولكن المسافرَ اليوم يختلفُ كلَّ الاختلاف عن نظيره بالأمس ، وبخاصة فيما يحمِلُ من متاع فلم يعد متاعُ المسافر تلك الكومات الضخمة التى تشمَل التافهَ قبل الضرورى النافع ، ولم يعد للسفر طابعُ الكثرة والتعقيد والنزوع إلى الكثافة

والرفاهَة ، فالطائرة تُلزم راكبَها أن يختصر متاعه : إذ تجعل له زنةً لايعدوها بحال ، فلا بد له إذن من مجانبة التكلف والزُّخرف ، ولابد إذن من إيثار البساطة واليُسر ، فالأشياء مقوَّمة عنده بما لها من نفع وجدوى ، لا بما يكون لها من مظهر ورَوْنق . على أن ذلك هو روحُ العصر الحديث فى مختلف مرافق الحياة ؛ فلا غَرْوَ أن يكون جانبه فى متاع السفر أبرزَ وأوضحَ ، واتبَاعُه أحقَّ وأولى .

وهل يستطيع رفيقُ الطائرة أن يحمل معه ما يريد من مختلف الحُلل التى تقتضيها حياتُه فى مجتمع الناس ، مثل حلة السهرة وحلة الحفلة وحلة الاستقبال وما إليها من حلل المراسم ؟ ... ألا يفضل أن يستبدل بها كلِّها معطَفا يذودُ عنه أذى البرد ، ويحميه من وَقْع المطر ؟ ... وهل يحجم عن أن يتخذ لرأسه « طرطورا » يتقى به الأهْوِيَة والعواصف ، تاركا ضروب القبعات العالية رمزِ الأبَّهَة والبذخ ؟ ... ولم لايرضى المسافر بذلك والعالم كله يجنح إلى البساطة ويتخلى عن التعقيد ، فهو يتخفف من كل المظاهر التى كانت تسودُ البَرقشة

والتزويق ، وهل أدلّ على ذلك من أن حلة السهرة وما شابهها من حلل المراسم قد أخذت تضمحلّ الآن وتتزايل فلم يعد لها منَ الاعتبار ما كان من قبلُ .

وجليّ أن الأدب قد تأثر بهذا المَنْحى أبلغَ التأثر ، فأضحت براعة الأديب المسرحي الموفق فى أن يقدم لك لوامعَ تجمع الخطوط الأصيلة للصورة والمشهد ، وتُركزُ المعالم البارزة للفكرة والموضوع . بحيث تغنيك البارقةُ عن أنوار متوهجة ، وتكفيك الخَطْفة فى جلاء ما يريد الكاتب أن يَقفك عليه ، دون تزيُّدٍ فى الإبانة . واستكثار من الوصف والكشف والإيضاح .

كانت هذه السوانحُ ترِفُ على خاطرى ، وأنا مُسبل الجفنين لا يملك النومُ عينى . وما إن رفعت جفنى حتى بهرنى ضوءُ النهار ، فأرسلت بصرى من الطاق ، فألفيت الشمس فى مستهل إشراقها الباسم ، وقد ازدان الأفق اللاَّزَوَردِىّ الفسيح بغلالة قرمزية زاهية ، تمرق عليها الطائرة كأنها براعةُ الليل فى خُفوقها تتألق . . .

٦

طفق الركب يستيقظ ، فقد حان ميعاد الفطور ...
ولاحت الصوانى الرشيقة عليها ألوان خفيفة من أطعمة الصباح ، ولم نكد نفرغ من طعامنا حتى أنهى إلينا عمال الطائرة أننا مقبلون على « برنديزى » ...

ثم توالىَ تصويب الطائرة وتصعيدُها مرات ، وفى كل مرة تتلاحق إلينا ألوان الأطعمة والأشربة فى مقاصف المطارات ، فالأطعمة بين شطائرَ وفطائرَ ، والأشربة بين مُغليّات وفوّارات ...

حسبكِ اللهَ يا شركةَ الطيران !...

لكأنك تحسبيننا أطفالا شرهين لايملّون التصايح والتشاغُب ؛ فلا تدبير لك معهم إلا أن تعاجليهم بأشتات المطاعم والمشارب ، مُبَرقشةً ملوَّنةً ، فإذا هم عنك راضون لايتصايحون و لايتشاغبون !...

وكنا فى كل مطار نهبطه يتداولُنا عمالُ « الجمارك » ورجال

الشرطة ، تطالعنا منهم وجوه عليها ابتسام مغتصَب وقُطوب صريح ، ومن عيونها تبعث نظرات تتنازعها الصّرامة والرفق ، وفى أيديهم أختام تعلو على صفحات الجوازات وتهبط فى جدّ واهتمام ! ... فإذا سألت نفسك : ألهذه الإجراءات قيمة ونفع ؟ لم تطمئن إلى جواب إلا أن يفتَرَّ ثغرك عن ابتسامة ناصلة ، أو تختلجَ كتفُك اختلاجةً ساخرة !...

على هذا النحو جزنا « برنديزى » و « روما » و « ميلانو » و « ميونيخ » و « فرنكفورت » و « هامبورج » ... بلاد وأمم لم نلجها إلا من سماواتها العالية ، أو فى مطاراتها المُسَوَّرة ، كما تُلمح الأطياف والأشباح خطفا ، ونحن كالمعتقَلين فى مركبات السجون ، ننتقل من مَثَابة إلى مثابة ، غيرَ مشاهدين مما حولنا شيئا إلا ما يسمح به النظر من طاقات هذه المركبات ! ...

وأخيرا حططنا رحالنا فى « كوبنهاجن » ، والوقت يُرْبى على منتصَف الليل ...

علينا أن نقضى الليلة فى عاصمة « الدانمرك » ، لتُقلّنا الطائرة ظهرَ غدٍ إلى « أُستُكْهُلْم » ، ولم يكن هذا فى التقدير

والحسبان ، ولكن برنامج الرحلة طرأ عليه شيء من التعديل ، لملابسات جدت في الطريق فكان على شركة الطيران أن تهيء لنا المبيت ، ولم يكن ذلك عليها بالأمر اليسير ، فلكي يتسنى لك أن يحتويك مرقد في عاصمة « الدانمراك » ، يجب أن يسبق لك حجزه منذ أسابيع ، ولكن عمال الشركة أكبوا على السماعات التلفونية يتقصون ويتعرفون ، وبعد لأي عثروا على نزل عن كثب من محطة السكة الحديد ، فأقلتنا إليه السيارات ، تطوى الشوارع المتألقة تحت رذاذ المطر ...

وبلغت بنا السيارات غايتها ، فوقفت أتبين ما حولي ، فلم أجد نزلا أو مايشبه النزل ، إلا أن السائق تقدمنا يحمل المتاع ، فتبعناه في دهشة ، فسار بنا على نشز من الأرض يشبه الطوار وانتهى بنا السير الى درج هبطناه ومثلت لحظة أتنور على ضوء المصابيح المنتشرة ما سماه السائق نزلا فإذا نحن حيال مبنى عجيب لم تقع على مثله عيني ، مبنى مخفوض ضيق العرض ، يمتد طوله امتدادا ينحسر دونه البصر ، كأنه قطار من قطارات السكة الحديدية قابع في مكانه ينتظر راكبيه ، أو كأنه أفعوان بائن

الطول قد تمطّى بجوار الطريق يَنْشُد الراحةَ والاستجمام ... وفى آخر الدرَج أستقبلتنا حديقةٌ رشيقة، ما لبثت أن أسلمتنا إلى الباب، فما أسرعَ أن التَقَمنا الثُعبان ! ...

ودخلنا ردهة أنيقة تنشق منها طرقةٌ حسبتُ وأنا أسيرُ فيها أنى فى نفق محتفر فى قاع النهر، وعلى جنبى الطرقة تتراصف حُجُرات ناصعة البياض، طول كل منها قيدُ خطوتين، وعرضُها كذلك، أسرَّتها قائمة بعضها فوق بعض: كشأن الأسرَّة فى بعض البواخر أو مركبات النوم فى القطارات؛ بيد أن الحُجُرات على صِغَرها وافية بالحاجة، أنيقة المظهر.

وأشهد أننا لقينا فى هذا النُزُل — على غرَابة بنائه، وضيق حجراته — كل ما يرجوه النزيل من راحة، وقد أمضَينا فيه ليلتنا هانئين ... وجيء إلينا فى الصباح بالفَطور، فإذا هو لا يقل — فى وفرة طعامه، وجَوْدة إعداده — عن مثيله فى الفنادق الفاخرة ! ...

وعندَ الظهيرة كنا فى المطار لنلقَ طائرة فلندية ذاتَ محركين، فارتقيناها ونحن نبسمل ونُحَوْقل، ونَضرَع إلى

الله أن يَشْملنا بفيضِ رحمته !...

إننا ضيوفك ، أيتها الفنلندية الصغيرة ، ساعتين ، لتبلغى بنا عاصمة « السويد » ، وقد أودعناك أرواحنا وفلذات أكبادنا من حولنا ... أعانك الله على حفظ الودِيعة ، ورعاية الأمانة !...

وما إن تصعَّدت بنا الطائرة ، حتى أسرعت تعتلى غوارب الجو فى رعونة وطيْش ،وهى تعابثُ الرياح فى مدارج السماء ، فتهزُّها الرياحُ هَزَّات تتعلق بها أنفاسُنَا من خشية وذُعر .

ولاحت لأنظارنا مشارف « اسْتُكْهُلمَ » من خلال تفاريج السحب ، ثم جعلت تتوضح . فحيثما أدرنا أبصارنا رأينا الخُلجان تناثر ، والجزر تكسوها المُروج الخُضر ، وكأن عطرها الفواح يتطاير إلينا فى أعطاف النسيم ، يُحيينا بنفَحات تنعش الفؤاد .

وهبطت بنا الطائرة تبتغى الأرض المطمئنة ، فنزلنا نستقبل أحبَّاءنا الأعزاء الذين من أجلهم رحلنا ، وإياهم قصدنا ... وكان لقاءٌ شَيّق أنيس !...

بلاد الشمس فى منتصف الليل

١

كان أولَ ماتوخيتُ من عمل — بعد أن اطمأن بى المُقام فى الفُندق — أن أزورَ « المفوضيّة المصرية » تلبيةً لدعوة كريمةٍ تلقيتُها من وزيرنا المصرى المِسماح !...

والمفوّضية تشغل شِقتين فخمتين ، من مبنًى عظيم فى شارع مديد يحاذى البحر ، يتوسطه ممشى للمترجّلين ظليل ، تتهدل عليه أفنان الشجر ، وإنه فى الحق لمُتنزَّه من أجمل متنزّهات المدينة ، وما أكثرَ المتنزهاتِ فى عاصمة « السويد »...

زايلتُ السيارة متجها إلى المَبنى ، فطالعتْنى لافتةٌ رشيقة خفَق لها قلبى ، حين قرأت ماهو مكتوب عليها بالفرنسية :

« المفوضية المصرية — مواعيد الزيارة من العاشرة صباحا إلى الواحدة بعد الظهر »

ومثلتُ هُنيهَة تجاه اللافتة ، أتملّى اسم «مصرَ» الحبيبة ، وقد طابتْ نفسى بأنه مهما تنأى الديار ، ويتباعدْ المَزَار ، فإنى مُلاقٍ فى مطارحِ الغُربة بَضعة من أرض الوطن ، بَضعة من« مصر» ،

هي من روحها الصافية نفحة ، وهي من طابعها الأصيل لمحة !...

وأردت أن أدخلَ ، فألفيتُني حِيالَ باب ضخم موصد ، فعمَدتُ إليه أحاول أن أفتحه ، مستنفدا كل تجربة ، فاستعصى عليَّ . وإذا السائق يهرع إلى . وإذا هو يعالجه في يسر ، فلا يلبث أن ينفتح ، وحثثت الخُطا ، فاحتوتني ردهة صغيرة ذاتُ باب آخرَ مقفل ، فسبق إليه السائق يفتحه كما فعل بالباب الأول ، ودخلت أرتقي بعضَ الدرج ، فاعترضني باب مغلق أيضا . عجبا لهذه الأبواب تحجب المفوضيَّةَ عن قصَّادها ، ثلاثة أبواب محوطة بالألغاز والأسرار ، عليك أن تكتنه طلاسمهـا قبل أن تستطيع النفوذ منها ، فما أشبه المفوضية بحصن حصين لغِطْرِيف من الغطارفة العِظام ، لا يُبيح مصونَه إلا لمن تُلقِي إليه « كلمة السر » ! .

ثمة أزرار بجوار الأبواب يجب أن تدرس نظام عملهـا وثمَّة لوح حلي بالأزرار أيضا عليه أسماء القاطنين في هذا المبنى ، وعن كثبٍ من هذا اللوح طاقٌ عليه شبكة كثيفة ، منه يترسل صوت البواب دون أن تراه ، عليك أن تخبره باسمك ، وتبسُط له الغـرض من زَورتك ، فإن أذن لك انفرجت الأبواب

ترحّبُ فى طوع بك ...

إن البواب وأبوابه فى الغمُوض والخفاء سواء ، ليس هو إلا طيفاً من الأطياف فى عالمٍ مسحور ، بل هو أقربُ ما يكون شبهاً إلى « الرجل الخفى » فى[1] قصة « ويلز » ذلك الذى لا تملك أن تأخذه العين ، وإن كان صوته يقرع السمع ! ...

بواب مبنى عظيمٍ ، لاترى له سحنة على الإطلاق ...

أين هو ؟ ...

إنه فى مثابته الأنيقة : خلف الطاق المشتبك ... أمير خطيرٌ يمارس سلطته فى أنفة وترفُّع ؛ فهو على أريكته مطمئنٌ وراء الحوائط والجدران ، تتنقل أنامله بين الأزرار حواليه ، فما أسرع

---

١ — ورد ذكر « الرجل الخفى » فى قصة « ويلز » وما الرجل الخفى فيها سوى شخصية خرافية تعاطت دواء خاصا ، فأضحى الشخص يسمع صوته ، ويأتى أحداثا ، ولكنه طيف من ملابس لا يرى بداخله جسد آدمى ، وشبيه بهذا البطل الوهمى ، بطلنا العرق ، لابس « طاقية الإخفاء » تلك الشخصية الأسطورية فى تراثنا العتيد . والحق أن للخرافات سلطانا على النفوس أدركه رجل العلم الحديث فأرونا فى « معرض باريس الدولى » بدعة العلم وحيلة من حيله المسلية ، فسلطوا نوعا من الأشعة على الشخص ، تخفيه عن العيون وإن كان مسموع الصوت ، يأتى بالأحداث ، وكأنى بهم فى هذا المعرض أرادوا أن يحققوا الأساطير تحت ستار من نظريات العلم وتجاربه الأصيلة .

أن تلين له مغاليقُ الأبواب !...

وارتسمت فى خاطرى على الفور صورةُ السيد البواب فى بلدنا العزيز ؛ اذ يقضى الساعاتِ الطوالَ مخشبا على عرشه الخشبى ، لا هو روح ولا طيْف ، ولكن كومة متجسمة تملأ الأبصار ، وانه ليجلسُ فى لمــــة عشيرته وأقرانه ؛ كأنهم فى ندوة أنيسة ، يترشفون الشــــاى ، ويتطارحون النِّقاش ، ويسترسلون فى مفاكهاتٍ وأضاحيكَ ، ثم يُقبلون آخرَ الأمر على كتابِ « دلا الخيرات » يجهرون بقراءة أوراده فى تخشع وابتهال !...

إن بوابنـــا فى مصر يبدو للأنظار قبل أن يبدو المبنى الذى يقوم على حراسته ، بل إن المبنى ليتضاءل ويتزايل خلف جِرم البواب فى تنفُّخه وتشمُّخه .

دخلت المفوضيـــة يستقبلنى نفر من المواطنين الكرام ، يعملون هنالك جاهدين على أن يكون لوطنهم فى ذلك البلد النائى صوت مسموع ، وعلى وجوههم تتجلى سماحةٌ واستبشار ، فهم يُمثلون فى أمانةٍ وصدق إشراقَ « مصر » وصفاءها ، وما يعتلج فى جنباتها من آمالٍ جسام .

٢

فى رسالة مجملة من رسائل التعريف التى تنثر على السُّياح من ضيوف « السويد » ، نقرأ هذه المعلومات الطريفة :

١ ــ الشعب السويدى من أكثر شعوب الأرض تجانُسا واندماجا ؛ فليس فيه دمٌ أجنبىٌّ إلا بمقدار .

٢ ــ الشعب السويدى أطول شعوب الأرض قامة ؛ فإن متوسط طول الرجل خمس أقدام وتسعُ بوصات .

٣ ــ الشعب السويدى من أقدم الأمم الأوربية حضارة ؛ فمَجْدُهُ عريقٌ مُؤثَّل ، وعمره يستغرق من السنين عشرة آلاف .

٤ ــ الشعب السويدى لايتعجل الزواج ، بل يؤخره إلى مرحلة الرجولة والنضج ، ولكن الزوجية على الرغم من ذلك يسرع إليها الانفصام فى أغلب الأحايين .

٥ ــ الدولة السويدية من أوائل الدول التى اصطنعت الاشتراكية فى نظام الحكم .

هـذه المعلومات — على ضآلتها — تكشف لنا جوانب من شخصية السويدى ذاتَ شأن ...

فالتجانس والاندماج جعل الأمة السويدية طابعا واحدا فى المزاج والعقلية والهَدَف . وطول القامة كان له أبلغ الأثر فى واعِيَة السويدى الباطنة ؛ إذ بعثت فيه نزعة الإباء والشمم ، وجنحت به إلى ما يشبه الاستيحاش ، حتى لتحسبه بادىء بدء أخا عنجهيّة وكبرياء ، وما هو بذلك ، فإنك ما تخالطه ، حتى يلين لك جانبُه ، وتتجلى دماثتُه ...

واعتزاز السويدى بتأصُّل تاريخه وتأثُّلِ مجده أوحى إليه الاستمساك بمأثور الأوضاع وموروث التقاليد

ولعل شيوع الطلاق فى الأسرة السويدية مردُّه إلى ذلك النِّزاع النفسى بين التحفُّظ والانطلاق ، فالخلة الأولى تستأنى بالسويدى فى عمله ، لا يتهوَّر ولا يَطِيش . والخلة الأخرى تهفو به إلى التحرُّر من قُيُود الزواج ، ولا بقاء لهذه الفوضى التى تهز كيان الأسرة هنالك . فلابد من استقرار ينتظم العلاقة الزوجية ، وفق تطوُّر المدنية الحديثة ، على نحو يلائم نفسية الشعب .

ولقد كان من أثر اصطناع الاشتراكية فى نظام الحكم السويدى ، فى وقت مبكر ، أن استتبتْ روح الأُلفة بين طبقات الشعب ، وشاعت العدالة الاجتماعية والاقتصادية فى شتى جوانبه ، واطمأنت الحكومة إلى العمل فى حكمة واتزان ؛ فلا تفريط ثم ولا إفراط ، يرتفع البناءُ على الصالح من أُسُس الماضى ، مستوفيا مقتضيات التطور والتجديد .

ومن مظاهر التزاوج بين المحافظة والتحرر فى السويد بقاء النظام الملكى فيها غير مقوض ، وما كانت الملكية لتبقى هنالك لو لم تكن مقيدة ، ديمقراطية إلى أبعد حدود الديمقراطية الصحيحة ، فالملك السويدى يملك ولا يحكم ، وهو يتجافى ما وسعه أن يتجافى عن بذخ الملوك وترف العروش ، وقد نزل عن معظم ما كان له من قصور ورياض وضياع ، وأصبحتْ ثروتُه لاتزيد على ثروة مواطن من الأَوْسَاط ، وهو فى هذا المسلك يضارع قرينيْه فى « النرويج » و « الدانمرك » بل فى « هولنَدة » و « إنجلترة » ... أولئك ملوك تقف بهم أممهم وحكوماتهم عند حدود مرسومة ، وهم لاتمتدُّ بهم أطماعُهم

وراء هذه الحدود .

وتتوضح سياسة الاعتدال عند « السويد » فيما فرضوه من قانون على الخمر ، فلم يحظروا ولم يبيحوا ، ولكن اتخذوا بين ذلك سبيلا هالهم ماجرّته إباحة الخمر من فشوّ الجرائم وفساد الأخلاق ، فأرادوا أن يوائموا بين الوَلع بالشراب والكف من شره المستَطِير ، واحتالو لذلك بأن أخضعوا الخمر لنظام البطاقات ... لكل مواطن قدْر مقسوم لا يعدوه ، فإذا شاء أن يشرب الخمر خارج داره كان ذلك فى المطاعم ، مع الوَجبات فى أوقاتها المعلومة ، فما يجوز لك أن تطلب كأسا من شراب إلا إذا كنت فى مطعَم تصيب غداءك أو عشاءَك . وبهذا التدبير زاوجت الحكومة بين الحد من الشرب وبين التوقّي من مغبّة الحظر المطلَق . فنجحت النجاح كله فيما أخفقت فيه حكومة « الولايات المتحدة » بالأمس القريب ؛ إذ حرمت الخمرَ على الإطلاق ، فراجت على الأثرِ تجارة الأشربة الرديئةِ والفاسدة فى السوقِ السوداء ، واعتاض الناس بالمغيبات الضارة والمخدّرات الوبيلة ، فانعكست آيةُ الحظر ، وساءت

العقبى . فلم تجد الحكومة مفيضا إلا أن تصافى الخمر ، وإلا أن تحلى بين الكئوس والناس .

و « السويد » بلد نصفه أو أكثر من نصفه غابات وأحراج ، فلا غرو أن يكون الخشب ومنتجاته ومشتقاته من أكبر مصادر الثروة القومية فيه ، والمزارع هنالك تبلغ نحو العشر من مساحة الأرض ، وللأنهار والبحيرات مثل هذا القدر ، وللمراعى أقل من ثلاثة فى المائة .

وأكثر شىء انتشارا فى « السويد » هو « التليفون » فإن عدد آلاته يزيد على ثلث السكان ، فثمة مليونان ونصف مليون من هذه الآلات لسبعة ملايين ، هم أهل « السويد » .

وكانت « السويد » إلى عهد قريب بلدا زراعيا لا يعرف غير الزراعة موردا للثروة ، على قلة المزارع ، فتغلغل الفقر ، وتخلفت الأمة ، حتى بدا فيها عهد «التصنيع» ، وسمت إلى استغلال ما فى المناجم والغابات من كنوز فإذا « السويد » فى قصير من الزمن ذات مصانع ومعامل تملأ الأكناف ، وإذا الأمة صناعية تتقلب فى أعطاف الرفاهة والنعيم

ما أشبهَ الأمةَ المصرية في هذه الناحية بأمّة « السويد » شكونا من مثل ما شكَوْا ، ونعالج أمرَنا اليوم على نحوِ ما عالجوا ، ولقد بدأتْ « مصر » وثبتَها في هذا المدى في طِماحٍ وجِدٍّ ودَأب ، وما أيسرَ الغاياتِ على دائب طَمُوح ! ...

٣

ما أعجبَ تلك الظاهرةَ الطبيعية التى تتميز بها بلادُ الشّمال إذ يمتد النهار فى أشهُر الصيف، فلا يزال ينتقص من أطراف الليل حتى ليكاد ينسخ آيته فى الكون ! ...

إن ضوء الأصيل يظَل هنالك مضروب الرِّوَاق على جوانب الآفاق، لا يبرح ولا يتزحزح . فإذا انتصف الليل هبطتْ ظالةٌ خفيفة رقيقة، لا تلبثُ أن تَتَقشّعَ متزايلة أمام ابتسامة الفجر المُبكر، وإنها لابتسامةٌ تؤذِن بضحكات الشمس فى عرض السماء تجرّ أذيالها المعصْفَرة .

إنك لتضيقُ حقا بذلك النهار المكْسَال، بل ذلك القعيد العنيد يتشبث بمجلسه لا يتحلحل عنه، يفتاتُ على الليل غير آبِهٍ ويغتصبُ حقَّه فى جسارة واجتراء . والليل واقفٌ منه وقفةَ الصاغر الذليل خلف الأُفق، ينتظر مسترقا فى الحين بعد الحين نظرةَ الحنق إلى ذلك النهارِ المستبد الغشُوم، وهو سادر فى

غُلَوَائه ، لا يأذَن لليل فى الظهور إلا فترة متضائلة يتعثر فيها البدء بالختام .

إيه ياليل !...

ماذا أبطأبك ، وماذا قَيَّدَ خَطْوَك ، فاستوحشَت الدنيا لظلمتك ، وشاقها ماتنعمُ به من سَكينتك ؟...

حقا ، خُلق الإنسان ألوفا ، وقد عَرفنا الليلَ يخلفُ النهار ، بذلك جرت سنّةُ الله فى خلقه ، ومضى عليها ركبُ الأيام فى سيره ، فأنا هنا أتفقد الظلمة ،وأشعر لفقدانها بالوحشة ، وأرتقبُ مهبِطَها ساعةً بعد ساعة

إيه ياليل !...

أين أنت هنا من ليل الشرق العتيد ؟... ذلك الليل العظيم الذى يصبو المغنىّ الشرقىّ إليه ، فيفرغ له بألحانه وأنغامه ، يساهره ويسامره ، ويصافيه ويناجيه ، وبعينه يفديه !...

إيه ياليل !...

أين بريقُ نجومكِ الألاّقة ، وبهجتها الفتانة ؟... إنها لتبدو هنا شاحبة مستخذية فى ذلك اللام المزيل !...

إيه ياليل ! ...

أنت ها شبحٌ هاربٌ ، وخيالٌ ناصل ... حياتُكَ لحظات خَوَاطف ، أما أنت هنالك فى سَماء الشرق ، فإن حياَتك تطول وتمتد ، وما أُحيلاها من حياة ! ...

إيه ياليل ! ...

الصَّبُّ الوَلهْان من بنى الشرق ، يلوذُ بأستارِك ، ويركن إلى جوارك ، تلذّ له فيك الخَلوة والمناجاة ، ويطيب له معك التوجُّع والشَّكاة ... حِضْنُك عليه فى وجده وشجوه حنون ، وصدرك على أسراره وطواياه أمين .

نهارى نهارُ الناس حتى إذا دجا

لىَ الليلُ هزتنى إليك المَضَاجِعُ

أُقَضِّى نهارى بالحديث وبالمنىَ

ويجمعنى والهمَّ بالليـــل جامعُ

إيه ياليـــل ! ...

أنتَ هنا فى بلاد الشَّمال بين قوم لاحاجةَ بهم إلى جوِّ الخفايا والأسرار ، فهم يأبَوْن المتعة وراءَ الأستار ، وهم

يَنشُدُونها صريحة جهيْرة فى أوَضح الشمس ورائعة النهار ... العاشق يترشف قُبلَته كيفما شاء ، على أى نحو شاء ، تحت الخميلة أو على قارعة الطريق ، فى مَسْرى الهواء أو فى مجرى الماء ، لا سِتارَ يطويه ، ولا ظُلْمة تخفيه .

أنت هنا بين قوم يؤمنون بالمُتعة السافرة ، ولا يعرفون له مدعاة للاحتجاب والاحتشام ... ولم الخَفاء فى الحب ، وهو عندهم عرف لا حياء فيه ، وإلف لا نكيرَ عليه .

الحب هنا شأن طبيعى ، ينمو ويترعرع فى الضوء الوضّاح ، وإنه لحب هادىء لطيف يشفّ ويرق ، كأنه نَسَمات الأصيل ، تبعث فى النفس طمأنينة وتهدى إلى القلب راحة ! ...

فأين هو من الحب الشرقى العارم . ذلك الذى يعنف بصاحبه حتى يُذيبه ؛ كأنه لفَحَات الهجير المتضرِّم ، تذرف له الأعينُ ساكبَ الدمع ، ويتفطرُ فيه القلبُ من حُرْقة والتياع ، وينشقّ به الصدر من تأوُّه وزفير ؟ ...

ما أشبه الحب هنا فى الشمال بالحب بين زهرة رفافة وفُرْفُور وثّاب ... لا يكاد ذلك الفرفور يهبط على فنن

يودعه القُبلة العَجلى ، حتى ينطلقَ فى مرح يتغنى ! ...

فهل نقنع نحن الشرقيين بمثل هذه العاطفة الهيّنة التى تمر كخطفة البرق وطرفة العين فى هوادة ولين ؟ ...

هيهات ذلك هيهات ! ...

فليدَعْ لنا الغربُ ليلنا الطويلَ الموصولَ ، حيث نهيم فيه مع الظلمة فى مصافاة ومناجاة ، وحيث نستشعر فيه للأشباح والأطياف حياةً أى حياة . اللمسة الخفيفة لها مُتعة عميقة ، والخفقة العابرة لها معنى جليل ، ولا أشهى من أن تتناغى الشفاه حيث لا تبصر العيون ! ...

الظلام ! ...

ما أروع الظلامَ ! ...

وما أطيب هدأتَه ليستغرق النائمُ فى سُبات ! ...

فأنّى لمن ينشد النومَ أن ينعمَ براحته وسكينته ، وهذا الديدبانُ العنيد من ضوء النهار عن كثب منه ، يترصد له فى اجتراء ، ويعابثه فى سخرية واستهزاء ؟ ...

على أن بلاد الشمال تقتَص من ذلك النهار الظالم الأشوم

على مَدَار العام ، وبذلك يأخذ العدل مجراه فى نظام الكون العجيب ! ...

هـذا النهارُ الطويل — نهار الصيف — يَحُور نهارا ضعيفا مَهِيض الجناح ، فى أشهر الشتاء ، فهو لايجسُر أن يرفع هامته ، وقد جثم عليه ذلك العملاق من ليل داج تتلاحق أمداده ظلمات بعضها فوق بعض ! ...

لا يكاد نهار الشتاء يظهر فى الساعة التاسعة من صباح اليوم ، حتى تُغَيِّبه الحلكة فى الثالثة بعد الظهر

وهكذا يقف الزمن الأزلى السرمدى وِقفةَ الحاكم المنصف ، يداول بين ضوء النهار وظلمة الليل نشوةَ الغلبةِ والانتصار ، وذل الهزيمة والخُضوع ! ...

جزيرة الأحلام...

يسيرٌ عليك أن تلم بصورةٍ واضحة لمدينة « أُستُكهلْم » متى رسمتَ فى مخيلتك صورةً لخُلجان متناثرة ، ينساب فيها ماءٌ رقراق ، وهى تجـــوس خلالَ جُزُرٍ صغار رافلة فى وشْى أخضرَ ناضرٍ .

تقول الحكمة العربية المأثورة : ثلاثة يُذهبْن الحزَن ، الماء والخضرة والوجه الحسَن ... وهذه العالمُ الثلاثة هى طابَع ذلك البلدِ الطيب ، فحيثما تَرْجع البصر تطالعْك تلك المفاتن ، وتشهدْ كيف يتألفُ مِزاجٌ من جمال الكون تعاونتْ عليه فطرة الطبيعة وصنعةُ الإنسان ! ...

ليست مدينة « أستُكْهُلم » عاصمة كشأن تلك العواصم التى تختنق بأبْنِـيَة تتطاول وطرقٍ تتزاحم ، وإنما هى معرض رائعٌ من مُتنزهاتٍ متصلٍ بعضها ببعض ، وما انتقالك بين هذه المتنزهات إلا تطوافٌ بأرجاء المدينة ذاتِ الطول والعَرض ! ...

ما أكثر الجزُرَ هنا وما أجمَلها ! ...

من بينها جزيرةٌ هى أوسعُها شهرة ، وأعمرُها بالزُّوَّار ، لوقوعها غيرَ بعيد من قلب المدينة ، « جزيرة جُورجَاردن » ، أى « حديقة الغِـزلاَن » ، وإنما أطلِق عليها هذا الاسمُ ؛ لأنها كانت فى العهد القديم مراتعَ للظباء ، يؤُمُّها الهُـواة للاصطياد .

وطاب لنا أن نقصدَ تلك الجزيرة التى يحق لهـــا أن تسمى « جزيرة الأحلام » ... فاتخذْ نا إليهـا زَورقا بخاريا أُلقِـيت قيادتهُ إلى الجنس اللطيف ، فهنا غادتان تبدوان فى لَـبوسِ البحَّـارة ، لبوسٍ رشيق يزيدُهما من فِتنة وسحر ... ولقد استبان لى أن الجنسَ اللطيفَ يسيطر على البحرِ فى قيادة أمثال هذا الزورق . فمـا أشبه غيدَه بحُورياتِ البحر اللواتى تبالغُ فى وصفهن الأساطير ! ... وإنهن حقا لماهراتٌ فى أداء مهمتهِـن ، نشيطاتٌ فى إدارة الدَّفاف وشد الحبال ، أنيسات يجعلن من أنفسهن دليلات يرشدن السُّيَّاح . ويزودْنَهم بطرائفِ المعلومات والأخبار ... والجنسُ اللطيف فى هذا البلد يزاولُ أشتاتا من الأعمال ، ولكنه ما زال على عهده ، رقيقَ الحاشيةِ ، رشيقَ الحركة ، يجتذبُ العين بحسن الزينةِ ، ولُطف الدَّل ، وأناقة الهِنْدام .

تهادى بنا الزورقُ على صفحة الجدول ، والغادتان تتحكمان به في مملكة الهواء والماء ، ونحن مستبسلمون لهما تتصرفان بنا كما تهوَيان . وليس بجديد أن يُسلم المرء أمره إلى « حواء » ، تمضى به في مُلتَطَم الحياة كما تشاء ، فهذا حكم القدر مسطراً في لوحه منذُ الأزل ، وسيظل الحكمَ النافذ إلى غاية الأبد .

وتراءى لنا عن اليسار شارع « ستراند فاجن » العظيم ، حيث تقيم مفوَّضيتُنا العزيزة ، وعن اليمين معالمُ الجزيرة بما فيها من غابات ومتنزَّهات ومُروج ، تعلو نِجادُها تارة وتهبط وهادُها تارة أخرى ، فحارت عيونُنا بين الشاطئين ، لا نكاد نتملَّى فتنة الشاطىء الأيسر حتى يَلفتنَا إليه الشاطىء الأيمن بما حوى من كنوزِ الطبيعة الزاخرة .

وبينما نحن ماضون ، إذ لاح لنا العَلم الأخضر بهلاله وأنجمه البِيض ، وهو على ساريته العالية يخفق ، فما لبثت قلوبنا أن خَفقت معه ، وأشرْعنا إليه أبصارنا نجتلي طلعته ، ونبعثُ إليه تحية عامرة تحملُ التهنئة إلى الوطن العزيز ، إذ كان اليوم يوافق يوم العيد الأصغر ، عيدِ الفطر .

وكنا فى الحين بعد الحين نسمع صوت الدليلة ، تشرح لنا ما نشهد من معالم الطريق ؛ فإذا صادفنا مَرْفأ تلتمع زوارقه فى صُفرة فاقعة ، وهى تترجح على أديم الموج ؛ كأنها « السابحات الفاتنات » ؛ — سمعنا صوت الدليلة يقول : هنا ناد للزوارق ! ...

وإذا بسقت الأشجار وتكاثفت ، تحاول أن تخفى بين أحضانها المنازل الأنيقة ، أشارت الدليلة إليها تقول : هنا مثوى كثير من السفارات ! ...

وتضايق المجرى الذى نسلكه ، حتى غدا قناة تكاد ضفتاها تتلامسان ، فإذا الغصون المتشابكة تُفىء علينا وارفَ الظلال ، وتفيض علينا السكينة والصفاء ! ...

ومضى بنا الزورق فى هينة ويُسر ؛ كأنه يجوز طريقا معبَّدا فى روضة زهراء ، وأخذت عيوننا ربوة مُعشَوْشبة فى الجزيرة ، فقالت الدليلة متهدِّجةَ الصوت فى رقة وحنو : هذه خميلة الحب ! ...

حقًّا ما أجملَ هذه الربوة التى سوَّتها يدُ الطبيعة فى غير

تكلف ، وأضفت عليها غلالةً رقيقة من نسج الخيال والأحلام ، وما أولاها بأن تكون محرابا تتناجى فيه القلوب حين يؤلف بينها حب شريف وهيام عفيف !...

وهذا قصر رائع ... إنه قصر « الكونت برنادوت » — شهيد « فلسطين » — ذلك الرجل النبيل الذى انتزع نفسه من مباهج عيشه ، وألقى بحياته فى أتون الشرق المستعر ، فأتت عليه النارُ ، نارُ الغدْر والعدوان .

وذلك مبنى عتيق ، عليه جلالة ، وفيه طرافة ، تحُفُّ به خضرة كاسية ... إنه مطعم من مطاعم القرن الثامن عشر ، شيخ ركبته السنون ، ولكنّه ما فتىء يعمل فى همة الشّاب ونشطته ، محتفظا بطابَع عصره الخالى ، وتقاليده المأثورة ، ومن لطائفه أن له طائفةً من مركبات فخمة تجرُّها الجياد المطهّمة ، وهى تذهب لتنقلَ إلى المطعم روادَه فى حفاوة تكريم

وتسلل الزورقُ من تلك القناة الحالمة ... واتسع الأفق حيال الأعين ، فإذا نحن فى مياه « البلطيق » ... وتباعدت عن

اليسار معالمُ المدينة ، فالتزم الزورقُ أن يحاذى شاطىء الجزيرة عن اليمين ، ومررنا فى الجزيرة نفسِها بأبنية جميلة . من بينها معهد للصم والبكم ، وملجأ للعجزة ... يا لهؤلاء السعداء ممن نكبهم الزمن من خلق الله ! ... ما أجــــدرهم بأن ندعوهم التعساءَ المحظوظين ! ...

وتجلت لنا تحفة نادرة هى قصر الأمير « أوجين » أحد أمراء الأسرة المالكة بارحه صاحبه إلى العالم الآخر منذ سنوات قلائل . موصيا بأن يكون من بعدُ مُتْحفا للأمة، فنزلنا عن الزورق لتنْعيم النظر بطوْفة فى ذلك القصر البهيج ، وحديقته الفيحاء .

كان هذا الأميرُ فى مقدمة الفنانين الأصلاء ، وكان كذلك راعيا من رُعاة الفن الأعلام ، وما هذه الخيلة التى تحدق بقصره إلا نفثةٌ من نَفَثات فنه ؛ أوْ بَسْة من بَسَمات جوّاه ، بل إنها بَضْعة من قلبه الصفى ذوقِه الرفيع ... وإن القصر ليحفلُ بألواح فنية رائعة تشهد لصاحبها الأمير بالبراعة ، بيد أنّ خميلته هذه أجملُ ألواحه وأزخرُها بالحيوية ، فى صدرها تعتلج أنفاسُ الحُبِّ ، فتجعَل منها لوحا حيًّا يتجدَّد على الزمان .

تجوس خلال تلك الخميلة الفينانة متنقلا بين أفيائها الحانية هانىء النفس بما تشهد من رياحين يؤلف بين ألوانها نسق جميل وبين الخطوات والخطوات فى هذه الكعبة الفنية التى أقيمت لعبادة الجمال ، يطالعك أثر رائع يجتذب عينيك ، فلا تملك إلا المكوث حياله تستجلى مافيه من سحر خلاب ... حياض وجداول ونوافير تتمدد فيها حسان عاريات ، يتخذن فى ضجعتهن أوضاعا تكمن فيها الفتنة ، ورذاذ الماء يتساقط على أجسادهن اللجينية كأنه يدعدعهن ويعابثهن ... وربما أطلت وقوفك وأنت ترعى بعين الهيمان هؤلاء الحسان . فيخيل إليك لفيض الحيوية فيهن أنهن على وشك التغيير من أوضاعهن ، متقلبات يمنة أو يسرة ، أو ناهضات ينصرفن عن الحياض ليكتسين ، فتظل ماثلا لاتبرح ، وهن فى مستقرهن راقدات ، لايعبأن بمر الوقت ، فما هن من سكان عالمك الفانى يشاركنك فى حياتك الضحلة المملول ، وإنما هن من دنيا الفن ، مكتوب لهن الخلود !...

وهكذا تعمر الخميلة روائع التماثيل مبثوثة هنا وهنالك ،

تارة تحتضنها الأشجـــارُ تكاد تُخفيهـا بين الظـّـلال ، وطورا تكسوها غـــلائلُ من الغصون والأفنان ، وحينا تبدو ضاحِيةً تسفر للناظرين ! ...

خرجنـــا من خميلة الأمير « أوجين » نتساءلُ : إلى أينَ المسير ؟...

فانتهى إلينا صوت يقول:

إلى « سكانسن » ...

وتدانى صاحب الصوت منا مبتسما فى لطف ، وقـــد أدرك أننا غرباء ، وواصل حديثه إلينا يقول :

إن « سكانسن » جزء مهم من جزيرة « جورجاردن » ، لها المكانَةُ فيها ، بل فى العاصمة نفسِها ، بل فى « السويد » كلّها .

ولما استزدناه من حديثها ، قال :

ما يحمل بى أن أُطيلَ التحدُّثَ إليكم عنها ، فأُفسدَ مَتعتَكم بهـــا ، فعليكم أن تستطلعوا بأنفسكم أسرارَها ، وحسبُكم أننا نسميها هنا « مُتحفَ الهواء الطّلق » وهـو ضربٌ من المتاحف طريف ، تميزت به بلادُ الشمال ، وخاصةً « السويد » . ولكنى

أسألكم أولا . هل أصبتم غداءكم ؟...

فأجبناه بالنفي ، فصاح من فوره :

إذن هيّا إلى مَطعم « بلمانسرو » ؛ لتستمتعوا بجلسة هانئة فى حديقته المشبّع بروح الشاعرية والموسيقى ؛ إذْ أُقيم هـــذا المطعم تخليداً لذكرى شاعر سويدى عظيم ، فسُمِّىَ باسمه ، وقد كوفئ الشاعر بهذا التكريم ؛ لأنه أحبَّ جزيرة « جورجاردن » وخلد مفاتنها فى قصيـــده الرائع ، والقوم هنـــا يحتفون بذكراه ، فينظمون له حفلات موسيقـــية فى مختلف أنحـــاء الجزيرة كل عام .

وقصدنا إلى «بلما نسرو» ، فإذا هى مَغْنىً لطيف ، يعتلى ربوة زهراء ، رحيب المستشرَف ، له حديقة أنيقة بستقبلك فى مدخلها تمثال عارٍ ، يتوسط بركة صغيرة ، وقد حمل فى يده فوّارة عالية ، لا يبالى ما يتساقط من مائها عليه ، حين تَتناوحُ الرياح .

واخترنا مجلسَنا فى المستشرَف ، فأقبلتْ علينـا — ونحن نطعَم — جُوقةٌ من الموسيقيين يشنفون الأسماعَ برقائقِ النغَم وهم فى أزياء القرن الثامنَ عشرَ ، ليفيضوا على البقعة روحا من

« الرومانسية » المحببة ، وليحيوا ذكرى شاعر الجزيرة الخالدة : « بلمانس » .

ونهضنا بعد الغداء إلى متحف الهواء الطلق « سكانسن » فألفيناه مشيدا فى موقع حصن قديم لا تزال بعض معالمه الأثرية قائمة ، وعلى شرفته العالية بضعة مدافع هرمة تهالكت فى صف بعضها ، متجهمة الوجوه ، ترمق المدينة المنبسطة أمامها فى السهل الرحيب بنظرة زهو واستعلاء ؛ كأنما يخيل إليها أنها مابرحت « سيدة الموقف » تصون الذمار ، وتحمى الأهل والديار ، وماهى إلا أثر دارس يجاهد ولاة الأمر فى الاحتفاظ به على سبيل التـــذكار ! ...

على أننا مررنا بهذه المدافع ـ أو بالأحرى : حطام المدافع ـ نحييها تحية إجلال ، كما نحيى شيخا وقورا علت به السن ، حتى أبطلت حركته ، وكانت له فى سوالف الأيام عظائم وأمجاد !

يشغل « متحف الهواء الطلق » رقعة شاسعة تضم أطرافه ، ففيه مجموعات من قرى وحدائق وغابات ، حافلة بالأناسى وصنوف الحيوان .

لهذا المُتحف صِنْو، هو « مُتحف الحضارة » ... ولكن شتان ما بينهما ! ...

« متحف الحضارة » يصور معالم الحياة الاجتماعية للبلد ، فى مشاهدَ مصنوعةٍ ، وتماثيلَ صوامتَ ، وألواحٍ فيها أحداثُ التاريخ قريبه وبعيده ، يحتويها جميعاً مبنى واحد تحت سقف واحد

ولكن « متحف الهواء الطلق » يعرض هذه المعالم طبيعيَّة المشاهد مشبوبة النشاط ، فيها وميض الروح ! ...

« مُتحف الحضارة » يرينا التاريخ فى ألفاف من الأكفان والرموس ، أما « مُتحف الهواء الطلق » فإنه يرينا الماضى ، وقد عاد إلينا يدِب على قدميه فى حيوية عارمة ! ...

« مُتحف الحضارة » لا يعدو أن يكون مجلَّدا فخما ، تطالع فيه أروع صحائف الأمس ، أما « مُتحف الهواء الطلق » فإنه معرض تشهد فيه نماذج بشرية على مسرح الطبيعة ! ...

كان « مُتحف الهواء الطلق » فى بُداءة أمرِه فكرةً طافت بخيال أستاذ سويدى من المدرسين ، فلقيت الفكرة قبولا عند ولاة الأمور ، وما لبثوا أن حققوها على هـــذا الوجه ، وأتيح

للناس أن يَرَوا ما فيها من طَرافة ، فأعجبوا بهـا أيما إعجاب ، وسرعان ما انتشرتْ متاحفُ الهواء الطلق فى مُختلِف بلاد الشمال .

ولكى تبدو هـذه المتاحف صادقة المظهر ، أمينة المخبَر ، لا زيْف فيهـا ولا تصنُّع ، نقلت إليها الدور من مواطنها الأصيلة ، وأقيمت على نحـو ما كانت تقوم ، محتفظة بكل ما لها من مميزات ، لم يتبدل فيهـا شىء من الأثاث والنسق ، فهى كما هى فى شتى ظواهر حياتها القديمة .

لم تنقل الدور وحدها إلى هذه المتاحف ، بل نُقلت معهـا كذلك طواحينُ الهـواء ، والكنائس العتيقة ، وظُلَلُ النواقيس ، وما إلى ذلك من طرائف الآثار .

وما كان عسيرًا أن يتم النقلُ على وضع دقيق ، فإن هـذه الآثار مصنوعةٌ من الخشب ، قِوام العيش فى ذلك البلد .

شدَّ ما يطيب لكَ أن تجول فى متحف الهواء الطلق ، حيث لا سقف يُظل ، ولا أسوار تحُد ، فإذا أنت تجوزُ القرى واحدة تِلْو واحدة ، فتطالعك الحوانيت زاخـرةً بالبضائع

المحلية من منسوجات وطُرَف ، وقد أشرقَتْ وجوه البائعات الحسان على أبوابها فى حُلل تاريخية ، فاقعة اللون ، يتعاشق فيها الزُّخْرفُ ... وفى ساحة القرى تتراءى لك جوقة مَوسيقية فى لبوسها الوطنى ، وهى تعزف مقطوعات شعبية يتمثلُ فى ألحانها الطابع السويدى العريق ، وحيالَ الجوقة مرقصٌ يتجمع فيه الراقصون تُحَلّيهم ثياب زاهية موشّاة .

وإنك لتسير وسط هذا المهْرجان البهيج ، هينَ الخطْو ، منشرحَ الصدر ، تعترضك حظائرُ القرى ، وهى تعج بالماعز والأبقار ، فتهفو نفسُك إلى أن تدخلَ بعض ما فى القُرى من الدور ، لتكشف ما هناك من خَبَايا ، ولا تكاد تتخطى عتبة الباب حتى يلقاكَ مَنْ يرحبون بك فيقعَ فى روعك أنهم قُطّانُ الدُّور الأصلاء ، زراعُ العهد الغابر ، وقد تَنفَّسَ بهم العمرُ حتى أسلمهم إلى يومنا هذا ، دونَ أن تستبينَ عليهم الشيخوخة ، وتنضب فيهمُ القُوَى ، وهم يجوسون بك خلال الدار ، يشرحون لك ما غمض عليك من مرئيَّاتٍ ومشاهدَ ،

فتعلمُ: كيف كانت معايش أهل الريف فى العهد السحيق ؟

هنالك فى صدر البهْو ترى الفرن ، قلبَ الدار الصميم ، منه يشيع دفء الحياة . فلا غروَ أن يُوليَه القومُ أكبرَ العناية ولا يألوه زخرُفا وزينة ، حتى يبدو قطعةً من الأثاث عليها طلاوة ورونق . . . وغير بعيد من البهو تواجهك حجرة ازدحمت فيها المناسِجُ والمغازل ، وفى ركنٍ منها تلمح مرقداً عجيبا أقيم فى داخل الحائط ، وأسدلت عليه أستار مختلفةٌ ألوانها تسرّ الناظرين

فإذا تابعت طوافك بحُجُرات الدار ، ألفيْتَ المطاحن والمعاجن والطشُوت وأدواتِ الركوب وآلاتِ الصيد وعُددَ الحدادة والنِّجارة ، وما إلى ذلك من مرافق العيْش . . . ومتى بارحتَ الدار ، فنظرْتَ فيما حولها ، بدت لك المناحلُ والعرائش والآبار ، وسائرُ معالمِ الريف القديم .

تقع عينُك على هذا كله فى سِمَاتِه الأثرية ؛ وكأنما قد رجع إليه رفيف الحياة ، فإذا هو زاه خفاق .

وهذه القرى لا تتشابه فيما لها من أوضاع ونُظم ، فإن كل

قرية تحمل طرازَها الخاصّ فى هندسة البناء ، وَفق العهد الذى عاشت فيه .

وما أنس لا أنس ذلك النَّمَط العجيب فى تشييد طائفة من الدور ؛ إذ تقوم على عمد من حجارة أو خشب ، ترتفع عن الأرض بضعةَ أمتار ، فتراها الأعينُ من بعيد كأنها أشباح لها أرجل وسيقان .

وأروع منها منظرا تلك القرية « اللابية » اللطيفة ، ذاتُ الأكواخ المستديرة ، تحيط بها المراعى ، وتتناثر بينها مناقع الماء ، وتمرح فيها الوعول ، حتى إن جوها يعج بأسراب البعوض : سيد مناطق « اللاّب » ...

فى هذا المتحف الطلق الهواء ، تتجلى معالمُ الحياة السويدية ، ريفيةً وحضريةً ؛ فقد أفضى بنا الطواف إلى حى من أحياء مدينة تاريخية ، فخللنا مبنى أثريا مكتوبا على بابه أنه « صيدلية » ، وعرفنا أنها كانت لبعض الغابرين من مُلوك « السويد » ، ألحقها بقصره ، واختص بها نفسه وذويه ، وجعلها ذات أقسام ؛ فهذا مخزن للأدوية برفوفه وخزائنه ومقاعده ،

ترى فيه القوارير والحقاق والصناديق : عليها مظهرها القديم المألوف ، وعلى مقربة من مخزن الأدوية معمل تتكاثر فيه الأنابيق وأوانى الغلى والصهر والدق والوزن . وهنالك مكتب الصيدلى عليه المجلدات والأوراق والمحابر .

وكذلك تتنقل فى ذلك المتحف العجيب ، مالئاً عينيك من مشاهد التاريخ ، ومن صوره الحية الناطقة ، وقد ثارت فيك مشاعرُ وأحاسيسُ ، وإذا أنت قد اغتنمت خبرة أحقاب طِوال ، ومتعةَ حيَوَاتٍ عِراض ، فى بضع ساعات من يوم بهيج .

والآن إلى الموطن الذى تألفه مخلوقاتٌ من أصدقائنا غير الآدميين ... بقعة متراحبة فيها تتجاور فئاتٌ من طير السويد وحيوانه ، لكل فئة مأواها ، وقد أُعد إعدادا دقيقا يحاكى موطنها الذى جُلبت منه سواء بسواء .

هى حديقة للحيوان ذاتُ صبغة محلية ، شيدت على هضبة جمعت فى كيانها بينَ الغابة والمرج والبحيرة والجبل ، إذا جُلت فيها صاعدا هابطا : فكأنك تنشد صيدا . والفرائس ملك عن

كثب ، ولكن منالها منك بعيد . وليت شعرى أى صائد يحل بهذه الروضة الفواحة تراود رأسه نزوة القتل والافتراس ؟ ...

حسبك أيها الصائدُ المتطلعُ أن تشرفَ على هذه البركة اللطيفة بين أحضان الغابة ، تتملى ما تزخر به من فتنة وسحر ... الطير الألوف من بطّ وإوز ودجاج خلاّب الألوان ، طريف الأشكال ، يمرح طليقا على الضفاف ، متلاعبا بالماء ، أو محوّما فى السماء . وبين الفَينة والفينة يخرج من الغابة « السنجاب » ذلك الحيوانُ الظريف ، وهو يتواثب كالقط الصغير منتفش الذيل ، براقَ العين ، يتشمم بأنفه المستدِق ، باحثا عن طعام ... وقد تسوقه خطاه إلى مجلسك ، فلا يستوحش منك ، وإنما يتلطف لك ، مُطوّفاً حولك ، موصول النظر بك وأنفه المستدق لا يفتأ يتشمم ، فتفهم ما يعنى ، وتلقى إليه بقطعة من فطير أو حلواء ، فما أسرع أن يمسك بها فى اهتياج ، ويتخذَ من فوره وضعاً غريبا يثير انتباهك ؛ إذ يستوى على عجُزه ، معتمدا على ذيله وقد امتدت كلتا يديه بالطعام إلى فمه ، وانهال عليه قرضا كما تفعل الجرذان ! ...

وتسلك طريقك المتعرج إلى قمة الصخر ، موطن الدببة ...
وياله من موطن رائع لهذا الحيوان المخوف ، فما أجمل الدببة في بياضها الناصع ، يلتمع فراؤها التماع الحرير الثمين . وإنك لتشهدها أنيسة يتودد محياها إليك، خفيفة الحركة على جرمها الثقيل، تتقافز على الصخور في بركتها الجبلية ، تارة تغطس إلى الأعماق ، وتارة تطفو سابحة إلى الأمواج المتلاطمة تعابثها معابثة الأطفال .

وتمضي في جو لاتك ، تاركا حديقة الحيوان ؛ لتبحث عن متعتك الحضرية ، متعة القرن العشرين ، فلا تبخل بها عليك « سكانس » ، فما هي متحف وحسب ، وإنما هي مجمع لأنواع المباهج يلتقي فيها القديم والحديث .

ثمة مسرح فسيح ، تقام فيه حفلات الموسيقى والغناء ، وثم مطاعم ومشارب فيهما ما لذ وطاب ، وثمة سلالم متحركة تريح قدميك من عناء الصعود والهبوط ، وثمة مستشرفات عالية تطل بك على أمتع مناظر العاصمة .

زرنا أهم ما في جزيرة « جورجاردن » من معالم ، وآن لنا

أن نتسرب إلى قلبها ، لنستجلى مستودَعَ أسرارها ، حيث يكمُن الجوهر الأصيل لفتنتها الخلابة .

خير أن تقلك سيارة ، وأن تجتابَ قلب الجزيرة فى تباطؤ واتّئاد ، فسرعان ماتحتويك الغابة ، وإذا هى حينا كثيفة ملتفة ، تغشاها غِلالة من ظلام ، لاينفذ إليها النور إلا قطرا من أعاليها كأنه نِثار اللؤلؤ ، وإذا هى حينا مروج تنبسط أمامكَ حاليةً بالأزاهير، تترسل عليها شمس الأصيل؛ فكأنها مذهبةُ الحواشى ... وهنالك تبدو لك مطاعمُ ومشارب صغيرة تستقبلك فى تَرحاب، وإنها لتقوم فى ظلّ خشبيةٍ أنيقة رشيقة ، حولها موائدُ ومقاعدُ تتهدلُ من فوقها أفنانُ الشجر ، فلا تملك إلا أنْ تتخذَ مجلسك وسط هذه الفتنة الحية من الطبيعة المشرقة ، بين ماء يترقرقُ وخُضرة تتنضّر، ثم تنهض إلى الظلة لتطلب إلى النادلة الحسناء أن تملأ صينيتك بما اشتهيت من مأكل ، ثم تَحمل الصينية إلى مائدتك لتطعم هنيئا مريئا فى جو من السذاجة والدعة ، كله رَوْح وريحان ! ...

ولما جنَّ الليل ، وهممنا أن نرجعَ أدراجنا إلى الفندق ،

زين لنا الرفاق ألا نبارح « جورجاردن » قبل أن نزور « تيفالى » ... مدينة الملاهى ، وملعب الكبار والصغار ، أوما يسمى : « لونابارك » ... وما كاد يسمع صغارنا باسمه حتى أرادونا على الإسراع إلى ذلك المكان الحبيب إلى نفوسهم الغضة، فوافيناه متوهج الأضواء ، وانطلق الصغار فيه يتواثبون ويتصايحون فى مراح ... وتضينا هزيعا من الليل فى تلك المثابة الصاخبة ، متنقلين بين أنواع الملاعب ، تنحدر بنا القطارات والمركبات إلى مغارات الشياطين وتسمو بنا الطائرات وطواحين الهواء إلى أوج بعيد ...

هكذا فر اليوم كما تفر هانئاتُ المُنَى ...

أليست « جورجاردن » حقا « جزيرةَ الأحلام » ؟ ...

الحضـــارة ... فى خطوات ...

ماذا فى جَعبتك أيها الرائد لمن يقتفون أثرك ، ويستهدون خطواتك ؟ ... لقد أمتعتهم بالطواف ساعة في « مُتحف الهواء الطَلْق » ، فهل من بقية عندك فى « جزيرة جورجاردن » غير هذا المُتحف الممتع الطريف؟

جاءنا جواب الرائد على الفور :

غير بعيد منه متحف آخر ، هو أخوه وصنوه ، يسمى « متحف نوردسكا » . ماذا يزهدكم فيه ؟ ماذا ينأى بكم عنه ؟ أظهر ما بين المتحفين من فارق أن الأول على أديم الأرض فى العراء ، والآخر كسائر المتاحف يضمه بناء ، ولكن لا غُنيةَ لأحدهما عن صاحبه فى العرض والإيضاح. كلاهما يمثل الحضارة القديمة فى جملته . وإن اختلفت بينهما التفاصيل ، وكلاهما لمؤسس فرد ، هو الأستاذ « ارتورهازيلاس » ، فلا غرو أن يتقارب مكاناهما من هذه الجزيرة الزهراء!

ما أسرع أن تَأدّى بنا السيرُ إلى بناء ضخم فخم تعلوه أبراج ، كأنه قصر رفيع لسيد غطريف من نبلاء العهود السوالف ، يسلمك بابه إلى بهو طويل عريض غير مسقوف ، على جانبيه تصطف الحجرات ، ومن فوقه تتراءى لك طبقتان من البناء كأنهما شُرُفات ، وترفرف عليك أعلام السويد فى مواضى العهود ، حاليةً برسوم غريبة لأشكال شتى من الطير والحيوان والأبواق .

أنت لا تكادُ تُقبل على البهو ، حتى يواجهَك تمثال عظيم لملك يعدونه مؤسسا لدولة السويد الحديثة ، ذلك هو « غستاف فاز » الذى قضى نحْبه ولم يستوف الأربعين من عمره فى القرن السادس عشر .... ويروعك ما يتجلى على الملك من مهابة وجبروت ولا تلبث أن تلوح فى مخيلتك معالم تلك العصور الخالية ، عصور الزهو بالفُتوَّة والقوة ، والتوسل بهما إلى الغلبة والهَيْمَنَة مما تحفل به أساطير الأولين .

تنقلنا بين القاعات والحُجرات نتصفح ما بها من معروضات فإذا هى تمثيل دقيق للمجتمَع السويدى كله ، على اختلاف مرافقه وتباين فئاته :

هـذه وسائل الانتقال برية وبحرية ، ترى بينها المركبـات والزلاّجات والقوارب ، إما هى بأعيانها ، وإما نماذج مصغرة ، أو لوحات مصورة .

وتلك أدوات الحرب والضرب . على اختلاف الألوان ، ترى بها كيف يتفنن الإنسان فى الإجهاز على أخيه الإنسان ...

وللأزياء مجال فى المُتحف رحيب ، فأولئك هم الناس فى أثوابهم الوطنية على تفاوتهم بين سَراة وزُراع وعُمَّال ، من رجال ونساء . كبار وصغار .

وهنالك المساكن بما حوت من أثاث ، تريك مراقد الريف والحضر ، فترى منها ما هو أشبه بالهَوْدَج ، على مدخله تنسدل أستار .

وثمَّةَ الحوائط ، عليها نقوشٌ زاهية الألوان منها ما يمثل أساطير مأثورةً ، وقصصاً دينية ، وأحداثا تاريخية ، وقد نُقلت ورُكبت كما كانت فى عصورها الغابرة تزين حوائط المنازل ، فهى تمثيل صادق للتصوير الريفى فى السويد القديمة ، وهى تمثيلٌ صادق كذلك للحياة فى تلك الأيام . وما أشبَهَها بما صَنع المصرى القديم

حين صور حياته ومعتقداته وطرائق عيشه على الجدران ، بيد أن المصوّر الفرعونى كانت له عبقرية فنية وطابع متميز ، وهيهات لهذا التصوير البدائى أن يدانيه .

وفى معرض الآلات الموسيقية تشهد آلتين تماثلان العود والقانون ، ولا تفترقان عنهما فى شىء ، وتشهد كذلك آلة تجمع بين « البيان » و « الهارب » ، ولعل هذه الآلة هى المرحلة الأولى للبيان ».

راقنى فى مُتْحف الحضارة أركان ثلاثة :

ركن عشيرة اللاَّب ، وركن الصيد ، وركن المخبَز :

فأما اللابى فلم يتركوا من أمره شاردة ولا واردة إلا جلوها له ، هو تارة فى زَلاَّجة تحمل متاعه ، كأنها قارب مقفل ، يجرها الوَعْل . وهو حينا يتخذ من الوعل مطية لأطفاله ، يحملهم على جنبيه فى مُهود على غِرار القوارب الصغيرة ، وهو طوراً فى خَيْمته وسط الدغل المشتبك . وأخيراً هو فى الجبل المقدس يتعبد ، متخذا له من الأحجار أربابا على نحو أوثان العرب قبل الإسلام .

وأما ركنُ الصيد ، فهو حافل بالمجسّمات والصور ، والتماثيل

البارزة ، والحيوان المحنَّط ، عامر بالحبائل والمصايد والفخاخ ، تتناثر فيه الرماح والسهام ، والبنادق والخناجر ، إلى غير ذلك كله مما يُظهرك على فن الصيد فى السويد : كيف بدأ ؟ ... وكيف تطور ؟ ... وكيف كان يتاح للقوم هنالك أن يطاردوا الحيوان العَتِيّ ، مثلَ الدبّ ، وأن يضربوا حوله الحصار ، حتى يصيبوا منه مقتلا ، أو يسقطوه فيما نصبوا له من شباك وأشراك ! ...

أما ركن المخبز ، فإنك تستشعر منه حرارةَ الحياة ؛ إذ يذكرك بالباعث الأول للكفاح على وجه هذه الأرض ، باعث الحصول على القوت ، على الرغيف ! ...

لقد مثَّل المُتْحف لعينيك دارَ خباز ريفى ، وكأنك زائر له تلتمس منهُ لقَيْمات ... وذلك هو يُشهِدك كيف كان أسلافه يتخذون المعجن ، ويوقدون الفرن ، ويُسَوُّون الرُّغفان .

مُتحف الحضارة هذا لا يَضَنّ عليك بشىء يخطرُ ببالك أن تعرفه من شئون الناس فى تلك الأحقاب : كيف كانوا يعملون ؟ كيف كانوا يَلهون ؟ ... ماذا كان لهم من ثقافات ومعتقدات وعادات ؟ ...

بل إن هذا المُتْحَف ليشرف بك على جانب من حياة الأمم المجاورة . تلك التى ترتبط بينها وبين «السويد» أواصرُ قوية ، تكاد تجعلها جميعاً دولة واحدة ، فتشهد معالم من حضارة «النرويج» و« الدانمرك » و« فنلندا » وغيرها ، مما حول « السويد » من بلاد وأصقاع ... ولسان حالها يقول : تلك آثارنا تدل علينا ...

وهكذا تصدُر عن المتحف ، وقد اجتزتَ حضارةَ مئاتٍ من السنين فى خطوات .

قصـــــر الغــــــرام!...

نحن فى مدينة « أُستكهلم » ، تلك المدينة العامرة بالخُضرة ؛ ومن ثَمّ أطلقوا عليها ذلك الإسم الذى يترجم عن ميزتها الواضحة ، ومعناه : « جزيرة الشجر » ! ...

ولكنّ أهل المدينة لا يقنعون بما يمرحون فيه خلالها من نعيم ، فالنزهة مُنْسِية النفس الملول من كل شىء ، والرحلة سبيل هذه النفس إلى التشوّف ، إلى التعرف ، إلى التجديد ! ...

هذا يوم الدعة والترويح يوم « الأحد » ، فما بَرِقَ الصبح حتى هجرَ المدينةَ أهلُوها من رجال ونساء وأطفال ، وقد اتخذوا زِىّ النزهة والرحلة . ومضوا إلى مرفإ البواخر والقوارب يركبونها طلبا لمتعة الانتقال ! ...

واختر ْنا سفينةً رشيقة ، فدخلناها بسلام ، قاصدينَ الجزيرةَ المُسمّاة « جزيرةَ الملكة » .

اشتهرت هذه الجزيرة بقصر قديم كان يَقضى فيه ملوكُ

« السويد » فترة الصيف ، وقد تُوفى فيه الملك المعمر « جوستاف » . أما الملك القائم الآن فقد ازْوَرّ عنه ، ولعله ضاق بما يخلعه عليه القدم من جهامة وعبوس ، وبما يعوزه من مقتضيات الحياة العصرية الحديثة ، فاستبدل به مسكنا جديدا فى بقعة أخرى يواتيه بهذه المقْتَضَيات .

سار بنا المركَب البخارى ، يشق الخلجان ، وصافح وجهنا نسيمُ البحر المنعش ، يبعث فى عيوننا نَشوةَ التطلع ، فلاحت لنا عن اليمين دار حمراء شيدت على الطّراز البندقى ، تصطف تحتها قبوات ، وتقوم فوقها أبراج ، وتبدو عليها تماثيل مذهبة تلتمع فى وهَج الشمس ، ومن حولها حديقةٌ تتناثر فيها مقاعد للناس .

تلك هى « دار البلدية » ، ما أشبهَها فى « أُستكهلم » بدار النيابة فى « لَندن » فإن الدارَيْن تماثلان فى الفَخَامة والعِظَم وفى مواجهة البحر .

وتراءَت لنا على مدّ الشاطىء منازلُ المدينة ، رائعة التناسق ، شُرُفاتها تتحلى بالأزاهير ، وتتبسط عليها مظلات زاهية الألوان ،

وأخذت عبوتنا جسراً بعيد المدى ؛ هو إحدى فرائد « أستكهلم » ، وما هى إلا أن اكتنفت الشاطىء غابات وصخور ، كأننا نستقبل منظراً من الريف ، وبدت لنا الدور من بين الخمائل تختلس النظر إلى البحر ، كأنها عرائس ترفلن فى الأفواف على استحياء .

وبينما نحن نستمتع بمرأى الزوارق متخطرة على الماء ، ومن حولها طلاب الاستحمام يعابثون الأمواج ، إذ مرت بنا فى السفينة عاملة التذاكر تقتضينا أجر الركوب ، وهى فتاة لماحة المحيا ، فى أدب جم ، فوجدتنى على غير وعى أرقب مكان القيادة من السفينة ، خشية أن نكون قد وقعنا تحت إمرة الجنس اللطيف ، كما كان شأننا فى الرحلة إلى « جزيرة الأحلام » منذ قليل ، ولكنى ألفيت القيادة قد أسلمت إلى رجل رزين السمت وقور ، فثاب إلى نفسى اطمئنان ، وعرفت أن إمرة الجنس اللطيف لا تمتد إلى قيادة مثل هذا المركب الكبير ، وإلا كانت الكارثة أو كادت !..

وتوالت علينا الجسور ، وتفرعت أمامنا مسارب الماء ،

وتعدّدتْ حيالَنا الجُزُر الصغيرة معشو شبة تتعانق فيها أدواح وتلتق خمائل ... وبجانب كل جزيرة زوْرق ، كأنمــا ضاق بوَحدته وظول ارتقابه ، فَقلِق فى مكانه يترجرج ... وأنت لو أُوتيت حدّة البصر ففتّشت فى أنحاء هذه الجزُر ، لتصيّدتْ عينُك أصحاب هذه الزوارق أشباحاً أشباه عراة ، مستلقين لضوء الشمس ، أومكتسين بظل الشجر ، أو مَرحين على الحافات يتقافزون إلى الماء ! ...

هذه جزيرة تتوافر فيها حياةُ الفطرة والطّلاقة .ولوسميتَهـا جزيرة «روبنسن كروزو » لمـا أبعدتَ . بيْد أن جزيرته كانت تحويه فردا مستوحشا لا أِلف له ولا أنيس . أما هـذه الجزُر فالناس فيها يتلاقوْن مؤتلفين مؤتنسين ، زوجين زوجين ؛ من آدمَ وحوّاء .

لبثنا فى هذه النزهة البحْرية ساعة . ثم أفضى بنا المطاف إلى « جزيرة الملكة » التى يقوم فيها القصر العتيق .

وغادرنا السفينة إلى أرض الجزيرة . وسرعان ما يممنا ذلك القصر المباح لمن ينشُد المتعة والاسترواح . فإذا نحن نجتاز إليه

حديقة فياحة تتبرّج فيها الزهور أيما تبرُّج . وتتجلى فى أحواض نُسّقت أبدع تنسيق . وعلى الجانبين طريقان اصطفت عليهما أشجار باسقات . وفى وسط الحديقة فوّارة زُينت بتماثيل ينساب الماء من أفواهها على أوضاع خلابة . وبين يدى القصر مُستشرف فسيح يكسوه الحصا اللامع ، وأينما أرسلت الطّرف وجدت ضروب التماثيل من وحْى الفن الجميل .

ليس هذا القصر وحديقته بدْعا فى فكرته . طرازُه يماثل طراز قصرين ، أحــــدهما : قصر « فرسايل » مصيف « آل بوربون » فى ضـــواحى « باريس » ... والآخر ، قصر « شونبرون » مصيف « آل هابسبورج » فى ضواحى « فينا » ... والناس يحُجون إلى هذه القصور سُيّاحا وغير سُياح ، لكى يتذوقوا ما فيها من روعة وفتنة . ولكى يتعرفوا معابد الجمال والروحانية والصفاء ، ملتمسين فيها ساعة من سلوة وإيناس .

نفذنا إلى القصر ، فإذا هو حقا من طراز قديم ، وإذا هو حقا جهم عبوس ، ولكنه عريق الجوهر ، ثمين المخبر ... الأبهاء مترامية الأطراف ، والحجر بالغة السعة ، فى كل حجرة

مدفأة نخمة ، والحوائط مغطاة بالسجادات ذات الرسوم والنقوش ، أو محلاة بألواح فنية تمثل بعض الملوك والأمراء ، ومجالى الصيد ، وأحداث التاريخ ، ومشاهد الحياة ...

وقفت لحظات أمام لوحين ممتازين ، يملأ كل منهما حائطا بأكمله ... أما اللوح الأول فإنه يريك الجيش العثمانى عن كثب من أسوار « فينا » ، وقد تجلى الجند فى حلل مزركشة ، وعمائم مكورة ، وبدت على سحنهم المغولية سمات الغلبة والتأمر ...

وأما اللوح الآخر فإنه يريك شخصية عثمانية فى بزة حمراء ، على جمل شديد الأسر ، ومن ورائه أشباح إبل عليها الركبان ... تلك صورة « قافلة » ... قافلة شرقية تخرج من الصحراء ! ...

وفى مختلف حجرات القصر وأرجائه أفانين من التحف والألطاف ، ولا تكاد تخلو حجرة من ساعة تدق ، كأن كل شبر فى القصر يلقى على سمعك نداء الزمن ، وإن الأثاث ليهولك بما فيه من ضخامة وتعقيد ، وإن التماثيل لتحاصرك من كل جانب ،

حتى لتحسبن الزوار من حولك تماثيل ، أو تحسبن هذه التماثيل بعض الزوار

وأفضينا إلى حجرة فيهـــا سرير ، هي مخدع لا ريب ... ولكن أي سرير هذا ؟ . . إنه لصغير ، فكيف كان يتمدد فيه الملك العملاق « جوستاف » ؟ أتراه كان مرقدا له وهو في المهد صبي ؟ ! ... على أن السرير محوط بالأستار الغلاظ ، في ركن من الحجرة معتم ، وأمامه قطع الأثاث كئيبة موحشة ، فكيف يتاح لامرىء أن يهنأ بنوم ليلة على هذا السرير المحتبس ؟ لكأنى بالأشباح المرهوبة رابضة تحته ، وبين أغطيته وخلف أستاره ، حتى إذا جن الليل انبعثت من مكانها عابثة تنشر الرعب والفزع !

هذه الجزيرة اسمها « جزيرة الملكة » ، فإن الملكة « كرستين » (١)

١ — أراد أبوها أن ينشئها على صفات الفرسان وشجعان الرجال ، ولكن المرأة هي المرأة ، فلم تلبث بعد وفاة أبيها أن ظهرت فيها غرائزها الأصيلة على نحو ما ستقرأ في الكتاب فيما بعد ، وذلك نتيجة الشطط والتشدد في التربية :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار :

ونحن نطالب بالفضيلة ، ونتمسك بها على ألا نغالي ونشتط إلى حد يدعو من نربيه إلى التمرد علينا وانتهاز الفرص ليعب من نهر الرذيلة إذا ما سنحت له الفرصة؛ فلنأخذ أبناءنا بالفضيلة في رفق ولين وهوادة ، بحيث نحبب إليهم الفضائل فيألفوها عن طيب خاطر ، ونفس راضية ! . . .

اختارتها موقعا تبنى فيه ذلك القصر المنيف ! ...

وإنما اختارت هذه الجزيرة الحالية بمفاتن الطبيعة : لكى يكون قصرها فيها مسرحا للصبابة والحب ، فأحسنت الاختيار كل الإحسان ...

خاضت تلك الملكة الفنانة مغامرات عنيفة في ميدان الهوى حتى طار لها صيت ، ولم يعد أمرُها خافيا على أحد ! ...

تفتقت عبقريتها عن ذلك القصر الشاعرى ، ليلائم الجو الغرامى ، فقضت فيه لُباناتها هانئة بحياة أشبه بالأحلام ؛ وإن روّاد القصر ليطوفون به اليوم يستنشقون منه عطر الحب ، ويلمحون فيه أطياف الهيام ! ...

أ كانت حياة هذه الملكة سخرية لاذعة ممن يضعون قواعد التربية ، ويرسُمُون أصول تنشئة الأبناء ؟ أم كانت درسا حيا حاسما لأولئك الذين يفتقرون إلى اكتناه خصائص المرأة وخصائص الرجل ، والإيمان بما بينهما من جلائل الفروق ؟ ...

أراد أبوها أن يُنَشّئها تنشئة رجولية طابعها الصرامة والجد ، فوكل بها من يدربها على مزاولة الصيد ، ويَرُوضها على

ركوب الخيل ، ويُلبسُها زِىَّ الرجال، وما زال بها يبث فيها روح الرجولة ، حتى تصبح لحكم البلاد أصلح، وعليه أقدر ، فكانت حياتُها أقرب ما تكون إلى حياة جندى فى ثُكنة ، لا تملكُ من أمر نفسها إلا ما تُؤخذُ به ، وما تُرادُ عليه ...

وهكذا أسلمتها تلك الحياةُ التى جافت ما رُكّب فيها من غريزة قاهرة ، وما سيت عليه من طبعٍ غلاّب ؛ إلى عكس ما نُشّئت عليه واحتيرت له . وكان الرّجْع الطبيعى لهـذا الشذوذ والشطط فى التنشئة أن انتهزت الملكة أولَ فرصة لكى تتخلّص ، لكى تنطلق ، لكى تنفجر ! ...

هـذا الآدمى المغلوب على أمره ، ليس إلا أسيرَ غرائزه وطبائعه ، فهى تتحكم فيه ، وهى تملى عليه ، وما كانت تلك الملكة المترجلة إلا امرأة ، وما كان تعليمها وتدريبها على حياة الرجولة إلا محاولة فاشلة لا تقتل الغريزة الكامنة ، ولا تُحيل الطبع الأصيل !

لقد استيقظت الملكةُ الرجلّ يوما فإذا هى تحس فى دَخيلتها ثورة الأنثى قصارى همها أن تظفرَ بإطراء ما وُهبت من

فتنة الأنوثة ومَسحة الجمال وغاية مناها أن تكون كَلمحتها شَركا للرجل، إذا مدت له حبائلها لم يملك منها الفكاك ...

مالها ولهذه الهيبة الملوكية التى تضفيها عليها الرجولة الكاذبة؟

ماذا يُجدى عليها أن يتسنى لها مَقياد الأعناق، دون مَقياد القلوب؟

هى امرأة، قبل أن تكون ملكة حاكمة ...

لاغرو أن تثور ثائرتها حين رأت الرجال ينظرون إليها نظرتهم إلى الرجال، ولا غرو أن تنطلق بواعثها الباطنة، لكى تثبت لنفسها ولمن حولها أنها ما برحت امرأة لم تفقد خصائص الأنوثة، وأنها مستطيعة أن تجتذب إليها العواطف والأهواء ...

أدبرْنا عن القصر تشيعُنا ذكرياتُ تلك الملكة التى استعلت بخصائص الأنوثة على صرامة الرجولة ... وطاب لنا أن نجول فى الجزيرة جولةً نرتاد فيها الغابة، فألفيناها تتناثر فيها ظلاّت رشيقة تشبه ظلاّت الاستحمام على الشاطئ، والناس فيها متخففون من ثيابهم يتصدون للشمس والهواء، فهم يستمرئون

هنا حياة الغابة بعض وقت كما يستمرئون فى وقت آخر حياة الشاطىء ، ولكلٍّ لذة ، وللناس فيما يعشقون مذاهب !...

وعدنا من الجزيرة فى سيارة حافله ، لها ستة أبواب ، بجوار أحدها عامل التذاكر فى مجلس حبيس تحيط به القضبان لا يبرحه ، الراكب يمر به لينقُده أجر الركوب ، أما هو فإنه مقيم يتحكم فى أبواب الحافلة فتحا وإغلاقا ، لا يقتضيه ذلك إلا أن يغمز زرا فى متناول يده ، كلما وقفت الحافلة أو همت بالمسير ...

واسترعى انتباهى فى طريق العودة من هذه الضاحية مجموعة من المنازل أُقيمتْ من خشب ، لتفريج أزمة المساكن ، كأنها قرية عصرية من قرى المستقبل . وقد ركبت هذه المنازل من أجزاء قابلة للنقل ، إذا شئت فككت أجزاءها فى بضعة أيام ، كشأنك حين تنقل الأثاث من مكان إلى مكان

ورجعنا إلى المثوى ، نحمد ليوم « الأحد » ما هيَّأ لنا من طوفة ممتعة بجزيرة الملكة ، أو بالأحرى : قصر الغرام ! ...

جـــزيـرة الدفــاع !...

هلم إلى جزيرة تبعد عن « استكهلم » مسيرة ساعة ... هى جزيرة « فاكسهولم » ... الخبراء من أهل « السويد » يتواصفون جمالها ، فما بالنا لانزورها ، وما راءٍ كمَنْ سمع ! ...

خفَّ بنا إليها مركب بحرى رشيق ، يعبر الخُلجان ، ويمر على الجزر ، ونحن نهيم بأنظارنا فى خُضرة ناضرة .

ما كدنا نحمِل الجزيرة المرموقة ، حتى شمخ أمام أعيننا عن اليمين بناء على لون الرّماد ، كأنما هو سجن كبير .

ما لهذه الجزيرة المرحة وْللسجن العبوس ؟

بل ما لنا نحن ولهذا البناء الأقتم الدميم ؟

نحوْنا نحوه ، نستبين أمره ، فإذ هو شرٌّ مما توقعنا أن يكون ! ...

إنه قلعة . دخولها محظور .

خيرا فعل الذين ضربوا عليها الحصار ، ومنعوا أن تُزار ، فما نبغى أن نعرف ما ورا تلك الأسوارِ من أسرار ، وما بنا

من حاجة إلى ما يثير الخاطرَ من معالم الضرب والحرب ، فلو أنهم أباحوا زيارة هذه القلعة الشوهاء ، لكنا فيها أزهد الزاهدين !

جنى على تلك الجزيرة موقعها الحربى بالنسبة للعاصمة ، فقد كانت فيما سلف من عهودها مثابةً لمن يصطادون فى البحر ؛ واتضح من بعد لقادة الجيش أن الجزيرة مطمح أنصار الغزاة فى الحرب العامة ؛ متى وقعت فى قبضتهم نفذوا منها إلى العاصمة فى يسر ، ومن ثم اضطرَّ حُماة البلاد من قادة الجيش أن يتخذوا من الجزيرة قاعدة تعسكر فيها الفصائل ... ولما وضعت الحربُ أوزارها جلتْ تلك الفصائلُ عن مواقعها ، وخلّفَت وراءها تلك القلعة الشامخة ، أشهر بناء فى الجزيرة ، لا نفع منها إلا أن يكون للتّذْكار ...

وقفنا هنالك نستقبلُ الماء ، ونجيل فيما حولنا الأنظار ...

ياالله لتلك الفتنة المائية الخضراء ! ...

الموج يترقرق فى رَخاوة وهدوء ، تسبح على صفحته نسمات مضمّخَة بعطر الحشائش البرية ، والجزر منها ما يتراءى دانى المنال ، ومنها ما تلمحه على البُعد يتوارى ، كأنما هو ضنينٌ

بحسنه على من يهفو إلى اجتلائه ، أو كأنما يصده الحياء أن تناله العيون .

ما أنصفوكِ أيتها الجزيرة الساحرة ؛ إذ أرادوك على أن تكونى ميدان قتال ونزال ، فلقد أبدعك الله مَرَاحا للطمأنينة ، وكعبةً للأمان .

إن العدو الذى يتلظى فؤاده من الأحقاد ، لا يكاد يستشرف مفاتنك الملائكية ، ويستظل بما أفاء الله عليك من سماحة ولطف حتى يخر ساجدا لك ، ملقيا سلاحه بين يديك ، مؤمنا بجوهر الإنسانية من محبة وألفة وسلام !...

حثتنا أقدامنا نجوب البلدة ، وأى بلدة ؟... لا هى ريف كالريف المعهود ولا هى مدينة بالمعنى المعروف . هذه قرية مدنية ، أو مدينة ريفية ، فيها من خصائص القرى سذاجة وطلاقة وجمال طبيعى وادع ، وفيها من خصائص المدن نظافة وتنسيق ونظام .

يشق البلدة طريق ظليل ، هو طريق المرور والنزهة ، لا تكاد تصادف فيه مركبة واحدة تثير الغبار أو تبعث الضوضاء ، إذا أوغلتَ فيه رأيت المقاعدَ المريحة تناديك أن تجلس ؛ لكى

فتستمتع بمنظر المروج الخضر ، وهي تزف إليك نفحاتِ الأريج .

وحين تستوفى منها حظك ، تتابع خَطْوَك إلى مشارف البلدة، تعتلى تلك الروابى التى كانت تُنْصَبُ عليها المدافع، فتروعك من فوقها خِلاَبة البحر المنبسطِ أمامك ، وترى الجزر المتنائية وهى تبعث إليك ابتساماتٍ خَضِرة ؛ كأنهن مستحِمَّات خرجن من الماء نديَّاتٍ ، عليهن نضرة ورُواء .

وتستهويك فى أرجاء المدينة تلك الحوانيتُ اللطاف التى تعرضُ عليك كل شىء ، فتشترى ما شئت من بطاقات وصور وطرَف ، مسترخصا فى هذا الجوّ من الأُنس والاسترواح ما تبذُل من ثمن .

وتحل ساعة البطون ، ساعةُ الغداء ... فتقصد فندقا ريفيا أنيقا ذا طبقتين ...

هنالك تدخل بهو الطعام ، فترمقك مائدة فسيحة تتوسط البهو ، عليها عشرات الأصناف من لحم وجبن وسمك ، إلى مخلَّلاَت و « سلطات » ، فتأخذ صحنك لتختار فيه ما تروقك من هذه الأصناف ، وتعود إلى منضدتك لتطعم ، وإذا أنت

تعلم أن هـــذا كله هو الصحن الأول فى قائمه الغـداء ، صحن المشـهّيات ، فتسأل نفسك : ماذا بعد هذه الأصناف التى يتمثل فيها ما تطهوه مطابخُ العالم أجمع ؟

حقا إن السويديين قوم ذوّاقون ، يقيمون للطعام وزنا أى وزن ، وبخاصة وَجْبة الغداء ، فلا يصيبون طعامهم كما اتفق ، ولكن يتفننون فى صنعه وفى طهوه ما وسعهم التفنن ، والصحن الشائع عندهم هو صحن المشهّيات ، أو الشطائر المنوعة : فهذه من تلك ، وقوام ذلك الصحن ضروبُ السمك ، فالسويدى يفتتح به طعامه لابدّ ، وسواء عليه ما يقدّم له من بعد . والشطائر عنده شرائح عارية ،تبرقش بألوان من الإدام ، كأنها وشى أو تطريز

وتفرغ من الغـداء ، وتخلد إلى الراحة بعض وقت ،ثم تصغى إلى الأحاديث ممن يرافقونك ، فتسمَعُهم يتحدّثون عن مدافن البـــلدة .

ماذا فى المدافن خليقٌ بأن يُرَى ؟..

بيد أن المرء حين يسمع حديث المدافن لا يستطيعُ أن يرد نفسه عن التأمل والذكرى

إنها مواطن للزيارة محبّبة ، وهي لكل الناس في كل مكان ، فما أقربَ أنساب الأحياء — حيثما كانوا — إلى الموتى في أي أجداث يَرْقدون .

هذه مدافنُ « الإنسان المجهول » ما أشبهها بقبر « الجندى المجهول » يرى فيهـا الحىُّ أطياف موتاه ، فترهف مشاعره ، ويستيقظ بين جوانحه وجْدٌ وحنين :

هيا إلى المدافن ، نقف فيها خاشعين وقفة التذكار ...

هيـا إليها ونحن في أطيب الساعات ، نستمرئ النشوة ، ونحظى بالمتعة ، لكى نشركَ في نشوتنا ومتعتنا من فقدنا من الأحباب الأعِزاء .

ذهبنا ناشطين نحج إلى مدافن البلدة ... فلم نجدْ ثمّةَ إلا بساطا من خضرة ناضرة ، تقوم خلالها أنصاب من الرخام ، لا كلفة فيهـا ولا صنعة ، ولكنها لاتخلو من رشاقة وجمال .

طوبَى لكم أيها الراقدون في أحضان هذه الطبيعة الزاهية ، في جنة الأرض ! ...

وعليكم من السماء رحمات ! ...

في صحبة الأزهار!..

نحن فى « السويد » كلما خرجنا إلى ضاحية أو جزيرة ، حمِدنا معها الصحبة ، واستشعرنا فيها الأنس والمُتعة ، فلا غَرْوَ أن نتنقل بين ضاحية وجزيرة ، وبين جزيرة وضاحية ، كمن ينتشى بالطيب من الرحيق ، يستسلم للكأس بعد الكأس ، وهو مَحْبُور النفس طروب .

أضافتنا فى رحابها يوما بلدة الشاطئ « سالشوبادن » .

وقد عبرنا إليها فى القطار الكهربىّ طريقا زاخرا بالبساتين والغابات ، محفوفا بالبحيرات الآهلة بالجزُر ، تبدو فيه الدورُ الرشيقةُ كأنما هى عوّامات .

هذه البلدةُ مصيف وادع ، طيّب الهواء ، لازحمة تشوبُ صفاءه ، أكثرُ ما فيه : حمامات ومراكبُ للنزهة ، وتماثيلُ عارية تقام على حِفاف الماء ، أو تُنصَب على الهِضاب ، فى أوضاعٍ جميلة تُشيعُ البهجةَ والانتعاش .

وفى أوبتنا من البلدة ، ارتقينا البرجَ المسمى « مِصعَد

كاتارينا » ، فأفضت بنا قمة البرج إلى جسر معلق تناثرت فيه المطاعمُ والأندية يحملها الجسر على ظهره، أو يدلى بها تحته ، فإذا احتواك مقعدك على أحدها خيل إليك أنك فى طائرة ذهبت عنها المحركات ، ووقفت بين السماء والأرض ، تشرف بك على البلدة ، وتبسط لعينيك منظرها الخلاب .

ويوما ساقنا الأدلاء إلى ضاحية « هاجانا » : فكان أول ما استقبلنا منها مبنى عصرىُّ الطِّراز ؛ تدخله فإذا أنت فى حديقة تُطل عليها الشُرُفات سافرةً أو محجّبَة ، وثمّةَ عرائشُ صُفتْ تحتها المناضدُ فى الهــــواء الطّلق،وثمة مسايلُ ماء كأنها مرايا مجْلُوّةٌ تنعكسُ عليهـــا ألوانُ الوُرود والرياحين ، وثمة جدار تطل منه تماثيلُ كهيئةِ رءوسِ أسودٍ صغارٍ ، تنبثق من أفواهها شآبيبُ الماء فى حوض أنيق .

وتخطو قليلاً فى هـــذا المبنى ، فإذا أنت تمشى على أرض من الصخر الأملس ، تنبت من بين أثنائه خضرة باسمة ...

وتتابع سيرَك ، فإذا أنت على مَرْج تتلاعب فيه أفياءُ الشجر، كأنها أطفالٌ تمرَح فى كَنَف الأمهات .

أفى مَعرض أنت للزهر والشجر ؟ ...

بل أنت فى مطعَم ، وهـــذا مبناه ، وإنه ليدعوك فى ذلك المِهرَجَان من الخُضرة والماء أن تأخذ قسطك من طعام وشراب ، قبل أن تضربَ فى أرجاء المصيف الجميل .

قطعنا أشواطا فى هذه الضاحية ، ونحن نجتازُ غابتها الشاسعة ، بما فيها من أشجارٍ باسقة ، وربواتٍ عالية ، ومهابطَ غائرةٍ ، حتى لقد خشينا أن نَضل فى مسالكها الطريق

وعدلنا عن الغابة المشتبكة ، إلى بسيط من الخُضرة يعمُرُه الناس فُرادىَ وزَرافات ، وهم يفترشون فيه أشعةَ الشمس ، متخففين من الثياب ، بل أشباهَ عراة ، وبين أيديهم طعامهم وشرابهم يتناولونه على مائدة سندُسية من الحشائش الزاكية ، نراهم حِراصا على أن يستقبلوا الشمسَ أو يستَدبِروها لتلفحَ وجوههم أو ظهورهم ساعات ، فتسائل نفسك : ألعلهم يختزنون تحت جلودهم ما تبعث الشمسُ الساطعةُ من حرارة ودفء ، لكى يعينهم حين تَغيم فوقهم السماء ، وتعدو عليهم عاديةُ البرد فى الشتاء ؟ ...

فى مديد هـــذه الروضة الفَيْحاء التى يقصرُ عنها الطرف تعترضك دارٌ يسكنُها نفر من أعضاء الأسرة المالِكة ، ساذَجةُ المظهر، بيضاء الطلعة كأنها عذراء تَشِفُّ عن طوية نقية . يحدِق بها سورٌ من السلك الشائك،تستبينُ حدودُها به ، فلا هى تعدُوه ولا هى يعدُو عليها أحد .

وربما اعترضتك فى مسيرك أبنية اخَر ، طريفة الشكل،منها ماتراه عـــلى هيئة الخيْمة المضروبة ، ومنها ما هـو كالظُّـلةِ المكشوفة ، وقد كانت هذه الأبنية للملوك القُـدَامى . أماكنَ راحة ومواطنَ استجمام ، فأصبحتْ اليوم يرتادُهـا الجمهور فى مَراح ورَوَاح .

وماكاد الأدِلاَّء يُديرون بيننا حديثَ المدافن فى هذه الضاحية حتى كنا إليها سِراع الخُطا ، لا نبالى ما تثيره ذِكرى الموت من وحشةٍ وانقباض ، ولا سيما فى هـــذه المثابة التى تتوهج فيهـا مباهجُ الحيـاة .

لقد استوفت المدافن حظها من هـذا الرَّوْض العـطر ، إذ أقيمت فى رِحاب فساح ، رائعةِ التنسيق ، تبسط الأشجار عليها

وارفَ الظلال ، وتسخو لها بألوان الأزاهير ...

نحن ، أهلَ الشرق ، نخطّ مدافننا فى مكان قفْر، فإذا ابتغينا زيارتها كان علينا أن نحمل إليها الهدايا من طاقات الريحان، فأما مدافنُ هذه الضاحية فإنها فى غُنية عن ريحانٍ تحمله ، جديرةٌ أن تُهدِيَ هى إليك ما تزخرُ به من أزهار نواضر .

تلك هى الضرائحُ نامية عليها الخضرة،تتدلى من فوقها الورُود النديّة ، فتجمع إلى الهيبة والجلال لُطفا ومؤانسة .

هنا تخف تباريحُ الأحزان وتجف الدموع فى المحاجر ، ويستشعرُ القلب اللهيفُ بردَ الرضا والسُّلوان .

فى هذا الإشراق البهىّ ، والنضرة الباسمة، تغدو رهبة الموت أُلفةً ،ووحشتهُ سكينة ، وصمتهُ مناجاة !...

ذلك ما نحسه نحنُ الأحياء الذين يرتقبون مصيرهم المحتوم ، حين يقفون بتلك الروضة الحاليةالتى تحومُ فيها أرواحُ الذاهبين ..

فليت شعرى أيتها الأرواح الهائمة، أيتها الأجساد الهامدة ، أيها الموتى : أهذا ماتحسون ؟ أم أنتم عن حياتنا غافلون ؟ ! ...

خطوات... في عاصمة السويد..

« الشارع » فى مدينة « استكهلم » يتيح لك أن تجتلى صورة صحيحة لأمة « السويد » اليقظة الباسمة المتفتحة للحياة ... فهى أمامك، على قارعة الطريق، بحضارتها التى تسرى فيها روح عصرية متجددة، وإن بدت عليها مسحة تقليدية مَهيبة. والأمة السويدية فى حقيقة أمرها بين أرستقراطية هادئة غير مسرفة، وديمقراطية سَمْحة غير متطرفة.

لا تطلب « الشارع » فى الليل، تحدوك الرغبة فى لهو ومتاع. فما تغنيك المدينة فيما ترغبُ كبيرَ غناء ... ليست هذه مدينة ليل، تحفل بأفانين اللهو الرخيص، والمتاع الطليق؛ ولكنها فى الأغلب مدينة جد وتوقُّر، وما أعنى أنها خَلاء من الفن، فنصيبها من الفن الرفيع غيرُ منقوص، بها مواسمُ للمسرحيات الغنائية وغير الغنائية، وفيها غير دور التمثيل الأصيلة دارٌ للتمثيل مقصورة على عرض الروايات الانجليزية.

ولقد شهدت على جُدران أحد المسارح إعلاناتٍ ذات أسلوب رمزى ، على نحــو مخفَّف ، تذهب مذهب الفن فوق الواقعى « السوريالية » ... فهنا ألوان ساطعة ، وهنالك مكعَّبات ومربعات ، وثمة رءوس بلا أجسام ، أو أجسام بلا رءوس ... ومن مجموع هذه الأمشاج يتولد إيحاء لطيف بموضوع المسرحية المعروضة يلفت إليه الأنظار ! .

إذا أوغلت فى « الشارع » ، والوقت ظهر ، صادفك حمَّــام للسباحة ، ماؤه ضَحْضَاح يعجُّ بالأطفال ... هو لهم خاصة ، فيه يسبحون ويمرحون ، ومعهم زَوَارق تحملهم على الماء تحت ظلال الشجر ، لايخشوْن من شىء .

وأنت ترى هؤلاء الأطفالَ عراةً فى حمام السباحة ، بنين وبنات ، حتى إنك ترى فى جانب من الحمام تمثالا لشاب مُمْسِك بيد فتاة يريدها على أن تستحم ؛ وكلاهما عار تمامَ العُرْى ، لا يستر جسده سَاتر ، طال أو قصُر .

والعُرْى فى هذه المدينة من الظواهر التى تسودها . فهو فيها لاينافى الفضيلة ، بل لعله عند أهلها من مقوِّمات الفضيلة ...

فالتماثيلُ الفنية فى أرجاء المدينة كلها تماثيلُ عارية ، يعوزها ما تعارفنا على أن نسميَهُ — نحن أبناء الشرق الوقور — التصوُّن والاحتشام!

حقا لكل بلد ما يلائمه من الأوضاع والتقاليد ، وربما كان العرى لا يلائم جوّ الشرق وخصائصَه ... ولكن هذه التجاربَ التى تمارسها الأمم فى رحاب الأرض جديرة أن تبعثنا على الحدّ مما نحن فيه من حشمة مصنوعة ، ومن تستر كثيف . فالمبالغة فى التحشم والتستر سبيل إلى الكبت ، مثارٌ للأخيلة والأحلام . وهذا الكبْت والتخيُّل حربٌ على المراهقة ، وعون على الانفجار . وعسى أن يكون تبسيط الحقائق الجنسية للأطفال ، وتعويدُهم الاختلاطَ فى باكورة العمر ، مما يباعد بينهم وبين الخيال الجنسى القاهر ، والكبت النفسى المَرير .

ينصرف الأطفال عن حمّامهم الخاص بهم ساعةَ الأصيل ، فإذا الشيوخ من الرجال والنساء يتوافدون عليه ، لا ليسبحوا فى مائه ، ولكن ليأخذوا مجالسهم على الحافات ، مستمتعين فى هذه الساعة الأنيسة بخطرَات النسيم ! .

ضدّان من الأعمار يتعاقبان على هـذا المستحَمّ : الطفولة ، والشيخوخة ... فهل هما ضدان يجتمعان ؟ أو هما فى العقلية والمِزاج شبيهان ؟ ... أترى الشيوخ هنا فى مستحَم الأطفال يستعيدون بالذكرى ما كان لهم فى طفولتهم من أحلام ، وما نعِموا به فى الصِّبا من مِراح ؟.

وهنالك مستحَم آخر للأطفال فى أحدِ الميادين ، تُحدق به الأشجار ، وتتوسّطُه فوّارةٌ يتناثر منها الماء يمنة ويَسرة ، فيتبرد به الأطفال وهم عُراة .

وعلى ربوة فسيحة فى أقصى « الشارع » يسمو بصرك إلى متنزه فاتن كأنه معلق ، فتصعد إليه ، فإذا هو حمام سباحة للكبار ، تحمية أستار الشجر من فضول النّظَرات ، وتكفل لروّاده مايحبون من خَلْوَة وصفاء ... وعلى قيد خطوات من الربوة ، تقوم كنيسة أثرية يبدو أنها من كنائس العصور الوسطى ، وقد تعجب لهـذا الحمام العصرى ، يأبى إلا أن يجاور تلك الكنيسة العتيقة . ولكن هذا هو طابعُ «السويد» : القديم للجديد قَرين ، ولكلٍّ مكانته ... ولا ضير على المعبد عندهم أن يشرِف على حمام

السباحة ، لعله يرده عن الغَىِّ ، ويجنبه النزَوَات ! ...

ولك أن تسأل : ماسر هذه الحمامات السباحية للكبار والصغار ، تتوغل فى قلب مدينة مائية على شواطئها حمامات للسباحة ؟ ... ولست تجد من جواب إلا أن القوم هنالك يعملون على توفير الراحة والمتعة للأهلين فى كل مكان ، لا يجشمونهم من كد ولا رَهَق .

وكما تروُعك فى هذه المدينة كثرة حمامات السباحة ، تروعك وفرة الحدائق العامة ، فهى تغازلك حيثُما سرت ، فى كل شارع ، وفى كل ميدان ... حتى إنك إذا عدلت إلى مطعم أو مشرب ألفيت نفسك فيه مشرفا على حديقة ، وأمامك بركة يسبح فيها البط ، وقد حملتْ إليك الأنسامُ روائع الأنغام .

و « الشارع » فى المدينة عامر بالحوانيت كبيرة وصغيرة ، فيها من السِّلَع ما تنتجه « السويد » وما يجلب إليها من سائر البقاع ، فلا يعييك أن تجد شيئا تطلبه وإن عزّ ... وما أصدق من سمى « أستكهلم » : مدينة نيويورك الصغيرة ، أو : بنت نيويورك ... وإنى على إعجابى بالأمم العظمى ، وتقديرى لمنزلتها

العالميّة المرموقة ، أرانى بالابنة الرشيقة أشدّ شغفا ، يروقنى منها هدوء تسكُن إليه الأعصاب ، ويفتننى فيها ذلك التناسقُ العجيبُ فى ظواهر العُمران . لكل شارع نظام مرسوم ، وطراز أبنية موحّد ، ولكل بناء ظُلات للشرفات ، يتم اختيارُ ألوانها عن ذوق فنىّ مصفى ، وإحساس بالجمال رَهِيف .

وإذا ابتغيت فى هذه المدينة شراءَ شيء من المخبز ، وجدت الناس فيه عددُهم كثير ، ولكن زحامهم لا تضيق به النفس ، فلا أنت مضطر أن تدفع الناس بمَنْكِبَيْك ، ولا أنت تتأذى ممن يدفعُك ، ولا أنت متبرم بالوقوف فى صف تنتظر أن تتقدم ، ولا أنت طامع فى أن يحابيك البائع بتعجيل مطلبك ، ولا أنت مستنكر أن يفضّل عليك غيرَك فيؤثره بالتعجيل ... هنالك بجانب الباب تذاكر مرقومة ، تأخذ إحداها حال وصولك ، وترقب أن ينادى البائع رقم تذكرتك ، فتسرع إليه لتشترى ماتريد .

والمطاعم فى المدينة تجرى على النظام الأمريكى القائل : اخدم نفسك بنفسك ... دونك الصوانى

والصحون وما إليها من عُدَّة المائدة، فاحمِل منها ماشئت ، وانتق مما اشتهيت ، واجلس حيث طابَ لك أن تجلس ...

وما أكثرَ ما فى المدينة من مطاعمَ ومشاربَ ، ولا سيما مشاربُ الشاى والقهوة ، فهى محلات للأكل الخفيف ، تقدم فيها أصناف الكعك :ومنوَّعات الشطائر والفطائر .

وتستطيع أن تضيف إلى المطاعم متاجر الفاكهة ، فالسويدى إذا أحس الجوعَ فى بعض طريقه ، وضاق به وقتُه أن يدخلَ المطعم . أو لم يجد فى نفسه شهوةً إلى ما يحتويه المطعم من مأكل ، فإنه لايستنكف أن يقصد بائع الفاكهة ، فيشترى موزة أو تفاحة أو كُمَّثراة ، ولا يلبث أن يقضمها فى الطريق على أعين الناس من رائح وغاد ...

وفى شتى أرجاء المدينة جشد من المكتبات ، تزخَر الكتب مختلفةَ الأنواع ، وفى بعض هذه المكتَبات تُعرض بجانب المؤلَّفات السويدية أحدثُ المطبوعات الأمريكية والإنجليزية ، وبينها قليل من المطبوعات الفرنسية ، أحسب أنه للأجانب خاصة ، فقد بدا لى أن السويدى لايعنى باللغات

الأجنبية كبيرَ عناية ، ومن العسير أن تتحدث إليه بغير لسان قومه ، فقلما يحسن غيرَه من ألسُن الناس .

ومع كثرة المطاعم ، ووفرة المكتبات ، تتوالى التماثيل فى الميادين ، وخلال الحدائق ، وبجوار الفَوارات ... وليست كلهـا وقفا على إحياء التاريخ ، تمجد البطولة ، وتخلد ذكرى الأبطال ، فإن فيها جانبا عظيما من التماثيل الفنية لإمتاع الأذواق .

ولك أن تستخلص من « الشارع » الحافل بهذه المظاهر الثلاثة : المطعم ، والمكتبة ، والتمثال : — أن « رجل الشارع » السويدىّ يهتم بتغذية جسمه حين يأكل ، وبتغذية عقله حين يقرأ ، وبتغذية روحه حين يُمتع ذوقه بفن التماثيل ... وبذلك يتكامل غـذاؤه الذى يجعل منه نموذجا للمواطن الرشيد السعيد .

والمدينة لاتنسى ديمقراطيتهـا وتقاليدها ، وإن استوفت وسائل التمدُّن العصرى ... فكما ترى فى شوارع « لوزان » « زيورخ » السويسرية أسواقا شعبية ، ترى فى أهم أحياء

مدينة «أستكهلم» سوقا للخُضر والفاكهة فى ظلات خشبية؛ يفـــد إليها حاملاتُ السِّلال من ربات البيوت، ليشترين ما يحتجن إليه.

هـذه السوق تقوم فى ميدان طليق الهواء يزدَانُ بأعمدة فخمة، أمامها نُصب فتى يمثل شاعرا موسيقيا من الإغريق، وهـو يعزف ويغنى، كأنه يعلو فى الجو، وعن كثب منه حلقة من الغيد الحسان متطلعات إليه، مصغيات لألحانه العـذاب...

والقوم هنـالك لم يبالوا أن يجمعوا فى قلب العاصمة بين سوق وميدان فنى، إجلالا لحق ناله الأهلون من قديم؛ إذ كانوا يبيعون فى هذا الميدان ما ينتجونه من فاكهة ومن خُضَر.

ومن علائم حرصهم على التقاليد أنك تسمع وقت الظهيرة موسيقى عسكرية تهز الشارع أو الميدان، فتهرع إليها مع الناس فتشهد ثلة من الجنود فرسانا أو مشاة، وهم مزهوون فى أردية زرقاء مزركشة، وعلى رءوسهم خوذات نحاسية تلتمع صفرتها تحت وهج الشمس، وتسأل: ما الخبر؟ فتعلم أن هـذا عرض متبع لتغيير حرس القصر، وتغيير الحرس كل يوم يقتضى

إجراء هـــذه الزفة الموسيقيّة، وفقـا للأوضاع الموروثة منذ أمد بعيد .

ومهما يكن حـــذاؤك لامع الطلاء أو تكسوه غَبَرَة ، فأنت راغب فى استطلاع شأن هــذه الظُّلة الخشبية الحمراء التى لا تتسع إلا لفرد ، وفيها كرسى يتعالى كأنه عرش ، وكأنك حين تتمكن عليه قد أصبحت من الغطاريف العظام ! ... وقلما يخلو هذا العرش من جالس ، فماسحو الأحذية السويدية يزاولون عملا من الأعمـال الرابحة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإنهم فى المدينة قِلة ، وظُـلاتهم منتثرة فى الشوارع الـكبرى ، وهم يتميزون بالصمت المطبق ، يتولَّوْن عملهم بلا هَـرْج ولا مرْج ، هيهات أن ينبِسَ أحدُهم ببنتِ شَفة .

وللجنس اللطيف فى أعمال المدينـة صَوْلة ... فالأدوية فى الصيدليات يحضرهـا الفتيات الفاتنات ؛ وهن اللواتى يحصّلن الأجور فى « الترام » ، ويقمن بالخدمة فى عـــدد من المشارب والأندية ؛ ويبعن المرطّبات والمثلّجات فى ظُلاّت عـــلى الطريق ...

وما راعنى إلا أن محلات الحلاقة لا تعرف سواهن ...

أَتُرَاك تنكر أن تسلم إلى المرأة رأسك ، ولا تنكرُ أن تسلم إليها قلبك ؟ ! ...

أم تَراك تخشى أن تعبث بشعرِك عبَثَ « دليلة » بشعر « شَمْشُون » ؟ ! ...

لقد احتل الجنس اللطيف كثيرا من وظائف المدينة فيما شهدتُ ... ولكننى لم أصادف بين القساوسة أحدا من النساء الصالحات ؟ ! ...

وفى يوم الأحد ، رأيت فى ملعب هنالك جمعا من صغار الطلاب عرفت أنهم ليسوا من أهل البلد ، على قبعَاتهم شارةٌ خاصة ترمز إلى الإقليم الذى وفدوا منه ، وما لبثوا أن صعدوا منصّة عالية ومثلوا أمام الجمهور ، فأنشدوا بعض أناشيد ختموها بنشيدهم الوطنى ، يحوطُهم من الناس تهلل وهُتاف .

تلك بَعْثة مدرسية من الصِّبْية ، قدِمت « السويد » لتقضى فيها مدة قصيرة ، فتتعرَف إلى أناس غير الذين تعرف ، وتشهدَ بلادا غيرَ التى شهدت ، وتطلع على عادات وتقاليد ، وتزور متاحف

ومعاهدَ ، وتستمتع بألوان من اللهو والتسلية ، فتتسع مداركهما لحضارات مختلفة ، وتتفتحَ عيونُها على نظمٍ وأوضاعٍ تزيد خبرتَها بالحياة والأحياء ...

ولقـــد تكاثرت أمثالُ هذه البَعْثة فى البلاد الأوربية والأمريكية ، إذ تتبادل الدول بَعثاتٍ محدودةَ العدد لأويقات لاتتجاوز أسابيعَ ... ولعمرى إنها لَدراسة ما أحوجَ الطلبة إليها فى طوْر التكوينِ ! ... فهى دراسة عملية يمارسونها فى لذة وشغف ؛ لايَلْقوْن فيها جهدا ، ولا يصيبهم منها ملل . وربما كانت أشـــدّ فى نفوسهم أثرا من تلك الدراسات النظرية التى يعانونها فى قراءة الكتب ، وتحصيل ما حوَت من معلومات ومعارف .

قلتُ لنفسى ، وأنا أشهد هذا الفوج من السُّيَّاح الناشئين : ماذا يكون موقفُ الدول المختلفة منا نحن المصريّين لورغبنا إليها فى مثل هذا التبادل للبعثات المدرسية على أوسع نطاق ؟ ...

لاريب عندى — ولا عند غيرى - فى أنها ترحّب به كل الترحيب ... وبذلك يسعَد أبناؤنا بمشاهدة العالم المتحضّر ،

ويكتسبون بالمشاهدة مالا يكتسب القاعد المقيم!.

هذا العالم المتحضر، يتوق أهله صغارا وكبارا أن يروا «مصر»، وهم يتطلعون إليها تطلع لاهف: فالأركان المصرية في المتاحف والمعارض الأوربية والأمريكية تصادف إقبالا نادر المثال، وما من أجنبي إلا يتمنى أن تكتحل عينه بمرأى المدنيات الرائعة: مدنية الفراعنة، ومدينة الشرق، والمدنية المصرية الحديثة، وما تمتاز به «مصر» من جو ساحر، ومن مناظر طبيعية فريدة...

فلم لا نتيح لأبناء العالم المتحضر أن يكونوا ضيوفاً على «مصر»، وهم رجال الغد، وأصحاب المستقبل، فنمد بيننا وبينهم أسباب التعارف، ونعقد بيننا وبينهم صداقة إنسانية تعين غداً أن تخفق على ربوع الدنيا راية السلام؟...

ثمانية أيام في قطار الشمس!..

اليوم الأول

عندنا يقول المثل في معرض التهديد : لأُريَنَّكَ نجومَ الظهر ... والنجوم لا تنالها العيون إلا في جُنْح الليل ، إذْ لا يخفق لها وميض إلا في الظلام ، فالمثل يعني أن المرء واجد من الهم ومن الألم ما يظلم له نهارُه ، فلا يلبث أن يرى في السواد نجوم السماء ، وهو من يومه في الظهيرة مازال .

ومصلحه السكك الحديدية في « السويد » تقول لك : لأُرينك شمس الليل ... بيد أنها لا تبغي بك سوءاً ولا أذى ، ولا تريدُ لك من تهديد ولا وعيد ، وإنما هي تنظم لك رحلة إلى مناطق الشَّمال ؛ لترى هنالك الشمس طالعة في منتصف الليل ، فتستمتع بمشهدٍ من مشاهدِ الطبيعةِ طريفٍ .

هذه رحلة موسمية ، تستغرق أياما ثمانية ؛ وهي تتكرر أربع مرات في خلال شهر « يونية » ، والمصلحة لا تفيد بها ربحا ، فالنفقةُ فيها كبيرة ، والدخْل منها قليل ، ولكنها غرض من

أغراض الدّعاية مطلوب ، وسبيلٌ إلى اجتذاب أنظار السائحين بقدر ملحوظ .

لستُ أدرى أكان إسراعنا إلى الاشتراك فى هذه الرحلة ، شوقا إلى شمسٍ تتراءى مع الليل ، أم كان استجابةً لإغراءِ الظفر برحلة تُرْبِى تكاليفها على ما تؤدى لها من أجر ؟ ... النفس طلاعة إلى الكَسْب والاغتنام ، وإن يكن وهما من الأوهـــام ! ...

فى نحو الساعة العاشرة من صُبح اليوم الموعود ، كان القطارُ فى استقبالنا فخما يزهو بلونه البُرْتقالى ؛ كأنه مسبحة الشفق . وكان كل شىء فيه يلتمع . وأكثر شىء فيه التماعا تلك الشارةُ المتجليةُ على كل مركبة من مركَبَاته . شارةُ الشمس ساطعةً تتوهّج .

قصدنا إلى مقصورتنا من إحدى المَرْكَبَات . فألفينا على كل مقعد من المقاعد محفظةً رشيقة تحوى قصارى ما يَهُمّ الراكبَ أن يعرفه من شأن الرحلة ... بَرْنَامَج مفصل تزينه المصوّرات . تَرْجُمَان سويدى إنجليزى مختصر . بعض

قشرات وكتيّبات تتحدث عن المعالم . وأخيرا شارة كالوسام يعلقها عضو الرحلة على صدره ، هى شارةُ الزمالة والعضوية والتعـــارف

أشعت بصرى فى صفحات البرنامج ، فإذا هو مشحون ... ستطوف بأنحاء « السويد » من « أستكهلم » إلى شمال « النرويج » . سنمر بكُبْرَيات المدن ، مجتازين البحيرات والغابات والمناجم والسهول والحقول ... وسنلمُّ ببلاد « الـــلاب » الطريفة ... سنرى شمسَ الليل !

تعالَ نتعرّف قطارنا الذى بدأ يشقّ طريقـــه على بركة الله ... هذه مثابة سوف نقضى فيها ثمانية أيام بلياليها ، فلنتعرّف من أمرها كل دقيق وجليل .

إنه قطار خاص بأعضاء الرحلة ، لا يقربه أحد غيرهم على مدّ الطريق ... وقد توافرتْ له شتى أسباب الراحة والتسلية . فإن شئت قلتَ إنه فندق متنقل من طراز رفيع . وإن شئت قلت إنه باخرة أرضية تستعيض عن الأمواج بقضبان من حديد .

هنا مخادع للنوم ، وأبهاءٌ للجلوس ، ومقاصير للتدخين ، وحجر

للكتابة والمطالعة ، ومطعم ، وحان ، ورحبة لعرض الأفلام السينمائية ، ومكتب بريد ، و « تليفون » تتصل منه بمن أحببت ساعة يقف القطار .

وفيما نحن نسير ونتفقد ، دُعينا إلى حفلة تعارف فى البهو الكبير ، تضم رُفْقة السفر ، ودارت علينا المرطبات ، وبرز مندوب السكة الحديدية يقدم لنا زُمْلة القطار الموكول إليهم تنفيذ البرنامج ، والإشراف على راحتنا أثناء الرحلة . فهذا رُبَّان القطار ، وتلك كبرى المضيفات ، وذلك هو المضيف الأول أو الدليل ، وهنالك المصور ، وغير أولئك عدة من موظفين وموظّفات .

وليس بدٌّ من أن تجتمع لهذه الزملة الرسمية سماتٌ خاصة من جمال الصورة وحسن التقويم ، إلى شمائلَ خاصةٍ من المرانة على النكتة الخفيفة ، والقدرة على الثرثرة المحببة والإلمام من كل فن بطرف ... هؤلاء الزملاء هم رفقاؤنا فى الرحلة ، عليهم أن يصحبونا فى الخروج والتفرج والتسلية ، وأن يجالسونا على موائد الطعام والشراب ، وأن يسرعوا إلينا بكل ماتطلب ، ويجيبوا عن

أسئلتنا وإن تعاصت ، ويحتملوا ما عسى أن نبدى من الحاجة ، يوافقون على الرأى وإن بلغ من السخف كل مبلغ . ويقهقهون للنكتة وإن باخت وكانت أبرد من ليل الشتـــاء ... وإن على المضيف الأول ومن معه من الرجال واجبا آخر ، يتصاغر دونه كلُّ واجب ، ذلك هو أن يراقصوا عجائزَ النساء ! ...

وانقضى حفل التعارف فى جو لطيف مشرق تشيع فيه بهجة وإيناس ، ورجعنا إلى مقاعدنا نتطلع إلى النوافذ تارة ، ونتصفح ما ضمت المحفظة تارة أخرى .

وانطلقت من مُضخم الصوت كلمات تقول :

بعد قليل نبلغ « أبسالا » فلما بلغناها نزلنا من القطار لتُقِلَّنا إحدى السيارات الحافلة ، وتمضى بنا فى أرْجاء المدينة الهادئة التى تشقها قناة، تلك المدينة التى تدين لجامعتها القديمة بالشهرة وبُعد الصيت ...

ما أشبهها بمدينة « ليدن » فى « هولندة » !... هما سِيَّان فى المظهر والجو وانفساح الصدر للقناة ، وإن القديم والحديث ليلتقيان فى مدينة « أبسالا » على وفاق ، فهنا جانب يَنفَحُ منه عطر العهود

الغــوَابر : وهنالك جانب يتنضَّر بأحدث ما وصل إليه العصرُ الحاضر .

زرنا فى المدينـة قصراً مَلكيا فخما يزيد عمره على أربعــة قرون .. كانت القصورُ آنئذ تستمد فخامَتها من الحَجَر ، فأظهر شىء فى القصر هو الحجارة والبلاط ، وثمة صور وألواح ، إلى مدافىء عتيقة ، ومقاعد عجيبة من خشب وفى البهو الكبير ، أو بهو المآدب ، يحدثنا التاريخ أن الملكة « كريستينا » أمضت وثيقةَ التَّخَلِّى عن العرش ، لاعتناقها الكاثوليكية . وليس البهوُ اليوم بمهجور ، إلا أنه قد سئم شهودَ الأحداث التاريخية الجسام ، فخلَص الآن لبعض الحفلات تقام فيه ، وقد حافظ على طابَعه الأصيل ، فلم يأذن للمصابيح الكهربية أن تشوبَ سكينته بما لها من وهج ، فالحفلات فيه مابرحت تقام على ضوء الشموع من ثُرَيَّاتٍ يدلى بها السقفُ فى وقار وجلال .

وتوخينا مبنى الجامعة : جوهرة المدينــة ، فراعتنى منها المكتبة الزاخرة التى تحوى مليون كتاب ونحوَ ألف مجلة ، من بينها مخطوطات غرائبُ ، وكتب دينية مصورة ، ومراسلات

شائقة بين الملوك والأمراء من رجال ونساء. ومن هذه المراسلات ما يميط اللثام عن طوايا قلوب ! ... وقد شهدتُ فيما شهدتُ من غرائب المكتبة، كتابا صغيرا كأنه فلم من الأفلام السينمائية، ملفوفا على بَكَرة، مَصُوناً في حُقٍّ من عاج ! ...

َصدَرْنا عن معبَد العلم ننشُد معبَد الدين . فإذا هو مبنى أحمر، شامخُ الأبراج، طراز بنائه قُوطِي، وما اجتزنا الباب حتى صافح أسماعنا صَوتُ الأرْغُن بنغمه الهادىء الوقور، كأنما يزف إلينا مشاهد الكنيسة الجليلة بدعائمها الرخامية على لون الرماد، وحوائطها الحالية بصور القديسين، ونواويسها الفخمة التى تطوى أضلاعها على أعلام من رجال الدنيا والدين . ملوك وأمراء بجانب قِسّيسين ورهبان ... وفى الكنيسة هيكل خشبى رائع، ومِنَصّاتٌ مزخرفة مذهبة، ونوافذُ متطاولة زجاجُها ألوان، وعلى الزجاج رسوم ونقوش.

وجعلنا نخطو ونخطو . وصوت الأرغن من حولنا يملأ الفضاء، أكاد أحِس أنه صادر من كل شيء فى الكنيسة. فكل شيء

فيهـــا كأنه يترنم تسبيحا وصلاة ... ورأيتنى أمسك عن الخطو هنيهة . وقد تملكتنى روعة الإيمان ! وأى إيمان ؟ إيمان مسلم في حرم كنيسة ! ... ولم لا ؟ والرب واحد ، وإن اختلفت العبادات ؛ وبيت الله واحد ، وإن تعددت الأسماء ...

لم يكن عبثا أن صلى المسلمون فى «أياصوفيا» كنيسة «بيزنطة» الكبرى ، وأن اتخذوها مسجدا من بعد . ما نسيت زورتى لهذا المسجد الكنسى ، أو هذه الكنيسة المسجدية ، وأنا فى زهرة الصبا . فإذا هى فى عهدها الجديد كما كانت فى أمسها البعيد . لم يتغير من معالمها إلا قليل . وكذلك رقى الواعظ منصة القس واستأنف رسالته فى النصح لله ، وانبعثت تلاوة القرآن من شرفات طالما انبعث منها ترتيل الإنجيل ! ...

تالله إن الإيمان فى جوهره لا يتفاوت . فهو اطمئنان النفس إلى المثل الأعلى حيث الرحمة والعطف والحب . وهو مغالبة الشهوات والنزوات التى تحول بين المرء وبين الخير ما استطاع إليه سبيلا ! ...

ودعنا الكنيسة ، وبيننا وبينها تجاوب وجدانى تذكيه

نغمات ذلك الأرغن الهادئ الوقور ...

وانتهى بنا السير إلى « أولد أبسالا » عاصمة « السويد » في عهد الوثنية القديم ، فلم نلق بها إلا دوارس آثار ، أظهرها تلال عالية ثلاثة ، شبيهة في عين الرائي بالأهرام ، تراب التلال ينحط على تراب من أجساد البشر ، فإن تحت التلال رفات ملوك من من الوثنيين الغابرين طواهم بطن الأرض ، وإن الناس ليعتلون هذه التلال — تلال الموتى — ليشرفوا منها على المدينة الحية ، حيث يدرج الأحياء ! ...

على مقربة من ذلك التراب المركوم بعض شجيرات طال عليها الأمد ، كانت فيما خلا من الدهر تتخذ مشانق ، أو تقدم للآلهة قرابين . وقد روت لنا مضيفة الرحلة قصة طريفة ترجع إلى هذا العصر الجاهلي ، قصة ملك علت به السن ، ولكنه كان بالحياة مشغوفا كل الشغف ، فكلما امتدت الأيام طلب المزيد . حتى إنه أراد بعض أولاده على أن يبذلوا أعمارهم له ، كي يضيفها إلى عمره ، فطابت بذلك أنفسهم ، وبذلوا له ما أرادهم عليه . وما زال كذلك حتى صار حطاما لا يريم سريره ، غير مستطيع

أن يَطعم وأن يَشرب، فكانوا يَصُبُّون له اللبن في قرنٍ جوفُه منخُوب، وطرَفه مثقوب، ويقربون من فمه طرف القرن فيرضعه كأنه حلمة ثدي ... وهكذا عاد الشيخ المتهالكُ طفلا رضيعا، ولكن ما أوسع البونَ بين طفل يرضع ليستقبلَ مباهجَ الحياة، وبين طفل يرضع ليُضيف إلى حياته عِبْئاً ثقيلا من يأس وخُمُول ! ....

أفضى بنا قادة الرحلة إلى مطعم اختاروه كي نتبلغَ فيه ببعض الشطائر، ونرتوي ببعض المرطبات... إنه حقا مطعم يندر أن تُصادفُ مثلهَ في طرافته، مَغنى رشيقٌ ذو طبقتين، صاحبه من هُواة التُّحف العتيقة التي تتصل بعصر الوثنية، وهو في هواه مرهَف الحس، مصْقُول الذوق ... تجوزُ بحُجُرات المَغنى، وتتطلع إلى أثاثه ومتاعه، وجاماته وأوانيه، وما يحوي من ألطافٍ ولوْحاتٍ، وما يزخر به من قرون وأسلحةٍ وتماثيلَ، فكأنك قد رجعت القهقرى إلى عهد الفرُوسيَّة السويدية في الأعصُر الخالية، عهدِ أُولئك الفرسان الذين كانوا يحترفُون الحرْبَ والضرْب، ويتفاخرون بالسواعدِ التي تفتل الحديد .... وأنت فكلما طال مكوثك في

هذا المطعم ، غلب عليك الظن بأنك قد أصبحت فارساً من هؤلاء الفُرْسان ، فهفت نفسُك إلى أن تحيا حياتهم الأولى ، وتمارس مظاهر عيشهم القديم ، ولعلك أن ترغبَ إلى صاحب المطعم فى أن يقدم لك قَرْناً مُتْرعاً بالشراب ،حتى تحسوَ منه كما كان يصنع الفُرْسان فى سالف الزمان ! ...

اجتمع شملنا بعد ذلك عائدين إلى القطار ، فما إن احتوانا حتى سار بنا يتهادى ، وقد أمتعتْنا وقفته عند ذلك البلد الذى جمع بين المعالم الوثنية والمظاهر العصرية فى آن ! ...

ودعانا داعى القطار إلى طعام ... فرأينا الأعلام المختلفة الصغيرة تزين الموائد ، وعرفنا مائدتنا بذلك العلم الأخضر الجميل ذى الهلال والثلاثة الأنجم ، وخفقت قلوبنا للوطن الحبيب خفقة اعتزاز ، وكانت لفتة كريمة أوليناها كل اعتداد وإكبار ، فلبثنا على طول الرحلة نأنس إلى علمنا المعبّر عن نضرة الحياة ،معلنين به شخصيتنا بجوار الشخصيات الأخرى التى تمثل عدةً من الأمم والبلاد .

وأمسك القطار عن سيره عند « فالون » ... مدينةٌ صناعية

ذات شهرة ، كانت فيما مضى أشهرَ البلاد امتلاء بمناجم النحاس. عمادِ ثروة « السويد » ، أما اليوم فإن المدينة تصنع القطارات ، وتجهِّز الموادَّ الكيماوية ، بعد أن انتهى مجدُ النحاس ، ولم يبق فى المدينة من مناجمه إلا النزرُ اليسير ، ومن آثاره إلا فجوات واسعة عميقة ترابها أحمرُ أدكنُ ، تتطاير منه رائحة قابضة ! ...

وهنالك بجوار منجم من المناجم النُّحاسية القديمة ، زُرنا متحفا للنحاس ، فيــه كل ما يَقِفُك على طريقة استخراجه واصطناعِه فيما انقضى من الزمان ، وفيه هياكلُ للمناجم التى أصبحَتْ أثرا بعدَ عين ، ونماذجُ من الآلات التى كانت تستخدم فى استخراج ماحوَتْ المناجم ، إلى نماذج من النحاس نفيسة ، تريك أنواعَهُ ومصنوعاتِه من أوعية وآلات .

ورجعْنا إلى المحطة ننتظر أن يَحينَ موعــد سير القطار ، ووقَفْت أنقل البصر فى أرجاء هذه المحطة ... ليس فيها جديد من التأنُّق وتكاثُف الزِّينة ، ولكن جمالَ مظهرها العادى هو الذى راقنى منها ، وهو الذى استوقف نظرى فيها ... أنت فى محطة متألقةِ النظافة ، حسَنة التنسيقِ ، مريحة المُتَّكآت ، كل شيء

فيها كما تَرُوم ، لا يخلو جانبٌ من جوانبِها من أزاهيرَ تزخر بها الأصُص ، فما يكون لك أن تضيقَ بالانتظار ، وهذه الأزاهير من حولك تفتن الأنظار ! ...

سألت الدليلَ فى شأن هذه الرياحِين التى تزدحِم بها محطّات السكك الحديدية فى « السويد » ، فأجابنى بأن الحكومة تنفقُ فى سبيل تزيين المحطات بالرياحِين مليونا ونصف مليون من « الكرونات » ... فأمررت يدى على جبهتى أسأل نفسى : متى تُعنى السكك الحديدية فى بلادنا بِرُكاب القطارات ، لا أقول بإمتاعهم والترفيه عنهم ، بل أقول بتهيئة مقاعدَ توفّر لكل راكب راحة الجلوس ، أو راحة الوُقوف !

وأثار هذا فى خاطرى مالاحظته فى « أستكهلم » بل فى « السويد » من أقصاه إلى أقصاه ، فقد خلتْ هذه البلادُ مما نُسمّيه الثالوثَ البغيض : الفقر والجهل والمرض . كل الناسِ متعلم ، وكلهم عليه رونَقُ العافية ، وكلهم لا يُعْوِزُه الكسب الكافل لعيشٍ كريم ... سواء فى ذلك أهل الحواضر وأهل القرى جميعا ...

عسير عليكَ أن تعثر فى هــــذه البلاد على شخصٍ تأخذه العين ، لما يرتدى من ثوب هُلاهل ، أو كسوةٍ تعلوها المَقاذِر .
فالزّى مقبول ، والنظافة شاملة ، والتعايش فى مستوى لا ينكره شعورٌ إنسانىّ رهيف .

إنها لظاهرة عجيبة ، تبعثُنى على أن أدعو إلى إيفاد بَعثة إلى هذا الموطن الطيّب الأمين ، تُـلِمُّ بما فيه من أنظمة ، وما له من أوضاع فى الاجتماع والاقتصاد ، وتدرُس ما يتخذ من وسائل استغلال الثروة وتنمية الحياة ، عسى أن نجد فى هذه الأنظمة والأوضاع والوسائل ما يفيدُ نهضتنا الراهنة ، تلك النهضة التى نبغى بها القضاء على ثالوثنا البغيض ، بل المخيف : ثالوثِ الجهلِ والفقر والمرض ! ...

غادر القطار « فالون » فى السادسة مساء ، وبعد ساعة وقف بنــــا عند « راتفيك » وهى مزار للسائح ، ومُصطاف للمقيم .
تتلألأ فيها بحيرةٌ جميلة ، وتتخلّلُها خمائلُ متشابكة ، وتتكاثر بينها ربوات خُضْر ...

على ربوة زهراء من هذه الرّبوات يقوم فندق مشرف على

البحيرة رشيق ، وفى ذلك الفندق دُعينا إلى العَشاء ... الساعيات هُنا بالطعام كأنهن فى لبَوس «السويد» الوطنى المُزركش ، والمشهِّيات يدعو تعدُّدُها وتنوعُها إلى حيرة تشغل الأيدى والأبصار .

ولم يرعْنى على الطعام إلا هذا الذى يسمى «شرب الأنخاب» ... ففيما بين لقيمة ولقيمة ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، أرى المضيفة تتلو كلمة ترحيب ، ثم ترفع كأسها لتقول : فى صحتكم ! ... فيردِّد الجمع قولها رافعين الكئوس إلى الشفاه ... ولم تخل هنيهة فى وقت العشاء من رنين الكئوس على إيقاع هذه الكلمة الخالدة ، مشفوعة بصيحات ونِكات كلُّها نشوةٌ وأُنسٌ ومراح .

أيتها الكلمة الساحرة : «فى صحتكم» ... لقد سمعتُ لفظك مدوِّيا يقرع الأسماع ، ورأيت شرابك زاهيا يتصبَّب فى الحُلُوق ، فلم أسمع ولم أر إلا خيالا ووهما ... لقد كان شرابى الذى هو «فى صحتى» أثناء تلك الوليمة الحافلة لا يعدو قدح الماء القُراح ، والحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه ! ...

انفضَّ جمع الطاعمين إلى شرفة الفندق المدرَّجة ، حيث قامت جُوقة للغناء بين رجال ونساء فى ثياب وطنية طريفة ، فغنت بعض مقطوعات مسلية تصحبهـا رَقصات شارك فيها من شارك من رُفقة السفر ! ...

وكان الليل قد أوغل ، إذ دنت الساعة من العاشرة ، ولكن أيّةُ أمْسِيَّة تلك التى نسميها ؟... والشمس الآن غاربة ، بل إن ضوءَها من حولنا غامر ! ...

نهضتُ من الفندق ، والساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، والرقص دائر لا يفتر ، فما شأنى به ، وأنا لا ناقة لى فيه ... ولا جمل !

أخلدتُ إلى مَخدعي فى القطار ، والليلة كأنها قمْراء زاهية ، لما يشيع فيها من ضوء الشمس التى قيل إنها فى غروب ! ...

وهكذا انقضى اليوم الأول من أيام الرحلة المرموقة ... رحلة قطار الشمس !

اليوم الثانى

لحنٌ موسيقى ، صافى النَّغَم ، كأنما هو سَقْسَقة الطير الغادى مع الفجر ، يذيعه القطار فى الساعة السابعة ، ليوقظ به النائمين فى أحضانه ، ويُنهىَ إليهم مطلعَ يوم جـــديد ، هو اليوم الثانى من أيام الرحيل ... وما هى إلا بعضُ ساعة حتى يطوفَ كبيرُ الأعوان بحجُرات القطار ومقاصيره ، يدقّ الأبواب ، ليلقىَ على رفقة السفر تحية الإصباح ، كأنه « مُوَحِّد الله » فى شهر « رمضانَ » يقرع طبلَه وقتَ السَّحُور ! ...

وفى الساعة التاسعة ، كان ركبُ القطار فى إحدى السيارات الحافلة قاصدةً بهم بلدة سويدية ريفية ، والطريق إليها طويل ، ولكن المضيفة قد أعدت لتزجيَتِه بَرْنامَجا للتسلية ، فوزعت كراســة صغيرة دونت فيها أناشيد شائعة ، وما هى إلا أن استحالت الحافلةُ بمن فيها من الركب جوقةً موسيقيةً شعبيةً ،

أو فرقةٌ مدرسية تترنَّم بالأهازيج في بهجة واستبشار .

وفى بعض الطريق ، وقفت الحافلة ، فنزلَ منها الرَّكْب إلى المُرُوج ، يمرحون فيها مَرَحَ الطفولة والصِّبا ... هؤلاء يتنَزَّهُون ، وأولئكَ يَحْدُون ، وآخرون يَرْسُمُون المناظر أو يرسمُ بعضُهم بعضا بآلات التصوير ! ...

وأوفتْ بنا الحافلة أخيرا على مشارفِ القرية الصيفيَّة المنشودة ، وهى أحد المراعى التى تكثر فى بلاد « السويد » قائمة بجوار الهِضاب العاليَة ، والجبال المكسُوةَ بالعُشب ، ترتع فيها قُطعان الأبقارِ والماعز ، فى رعاية أسراب من الصبايا الناضرات ! ...

كان فى انتظارنا على مدخل القرية فرقة موسيقة فى زيِّها الوطنى ، فانطلقت بنا تعزف مقطوعات شعبية لطيفةً ؛ تحية وحفاوة ، وتقدمتنا الفرقة تهدينا الطريق ، فرأينا أهل القرية يخِفُّون لاستقبالنا من أكواخ خشبية ساذجة طريفة الأشكال ! ...

وبلغنا الدار التى أعدّت لتضيفنا ساعة أو بعض ساعة ،

تخرج إلينـــا ذووها من رجال ونساء ، كبارٍ وأطفالٍ ، عليهم ثيابٌ بيض وحمرٌ مزركشةٌ مُطَرَّزة ، وهم مشرقو الوجوه ، لا يغيضُ على ثغورهم ابتسام الإيناس ، ولا تنضب على ألسنتهم كلمات الترحيب .

وبين يدى هذه الدار ، ألفينا دِكاكا حول موائد خشبيةٍ عليها طعام ... صِحاف مُتْرَعة باللبن الرائب ، وأخرى مملوءةٌ بمُرَبَّى التُّوت البرّىّ ، وخبزٌ رحراحٌ يلفونه أصابع ...

وجلسنا نُصيب من هذا الطعام الريفى الأصيل فى تلذذ ، والمراعى عن كثب منا تتنقل فيها قُطعان الماشية ، كأنها حَرَس الشرف فى استقبال الضيوف الوافدين من بعيد ! ...

وتجلى أحد أرباب الدار ، وبين يديه قرن ضخم ، فما لبث أن نفخ فيه ، فاسترسلت منه أنغـــام عِذاب تشبِهُ التقاسيم أو الليالىَ فى الأغانى المصرية القومية ، كأنما يتحنَّن بهـــا ناىٌ رقيق ...

واحتوتْنا الدار هُنيهَة نستريح ونتفرج ، فاسترعت انتباهى فيما رأيت أوضـــاع المراقد أو الأسِرَّة ، فهى صناديق

من خشب ، داخلة فى الحوائط تنسدل عليهـا أستار مزركشة ! . . .

وحان انصرافنا من الدار ، فإذا أهل القرية قـد اجتمعوا للتحية والتوديع ، واخترقنا طريقا ساذجا متعرجا يؤدى إلى ساحة القرية ، أو فنائها العـام ، فلكل قرية هنالك ساحة أو فناء . . . رحبة يقيم فيها الأهلون حفلاتِ الرقص فى المواسم والمناسبات ، تتوسطها سارية عالية مضفورة بأفنان الشجر ، حولها يتحلق أولئك الأهلون ، ويبدءون الرقص ، متماسكة أيديهم فى تصايح وابتهاج...

كذلك فعلوا ساعةَ وصلنا إلى الفِناء . . . فانضم بعضُنا إلى حلقة الرقص ، وهم يقاسِمون الأهاين تضاحُك البشر والأنس والارتياح ...

وقد علمت أن القرويين يحتفلون فى مثل هـذه الساحة بِعيد الصيف ، شهر الإشراق ؛ إذ يتقاصر الليل ، وتنقشعُ الظلمة ، ويتواصل الضوء السَّاطع البهيج .

عدنا إلى الحافلة لتسيرَ بنا إلى بلدة « مورا » ، تلك البلدة

التاريخية التى اشتهرت بحرب الاستقلال ، خلال القرن السادس عشر . . . ولم تقتصر « مورا » على تلك الشهرة الوطنية أو السياسية ، وإنما أتيحت لها شهرة فنية جعلتها كعبة الفن الرفيع ، فهى بلدة الرسام العالمى « زورن » ، فيها داره ومتاعه ومرسمه ، وفيها متحف يصون آثاره التى تملأ العين من متعة ، وتملك النفس من مهابة وإكبار .

دار الرجل ذات طبقتين من الخشب ، طابعها ريفى ، ولكنه الريف المتحضر ، فكل محتويات الدار تريك الفن الجميل ممزوجاً بروح الريف وخصائصه . . .

الأصونة فى الحوائط مصنوعة من الخشب الملون المزخرف ، والمدافىء متعددة على الطراز القديم ، والمشجب مازالت عليه معاطف الرسام وقبعاته ، وثمة مجموعة من الأوانى الفضية المنقوشة ، تعد فى طليعة المجموعات النادرة ، إلى غير ذلك مما ينبىء عن حياة فنية مترفة ، لا تزهد فى شىء من ملذات العيش ونعيم الحياة . . .

وفى الدار حجرة عصرية خص بها الرسام صديقه « أوجين » ، ذلك الأمير الفنان الذى كان حفيا بالرسام الفنان ، ينزل عنده

فى الفينة بعد الفينة ، ليتمتع روحه بجو فنى خالص .

وفى فناء الدار كوخان طريفان فى كل منهما مَرْسَم ريفى ساذج ، وأحد هذين المرسمين مقصور على رسم النساء عاريات إذ كان « زورن » يهوى العُرْى ، ويتجلى هذا الهوى فيما أبدع من رسوم .

وقد مررنا بعد ذلك بحظيرة ملحقة بالدار ، تجمع ما كان يتخذ الرَّسَّامُ لانتقاله ورياضته من مركبات وزلاجات .

وزرنا متحفِ الفنان ، وهو مبنى عصرى يلتقى فيه الكثيرُ من ألواحه ، ومن أروعِ ما رأيته فى المتْحف لوح رسم فيه الفنان نفسه ، وهو فى ذروة رجولته ، وأوج شهرته . . . طلعةٌ زاخرة بالقوة والفتوّة والثقة بالنفس ، وعين نفّاذة كعين الصقر مفصحة عن إرادة صلبة وعزم جبار ، وقامة مبسوطة مكتنزة ينفح منها عطر التعانُق بالحياة ، والتّشهِّى لما تحوى من متع ورِغاب .

لم يكن فن « زورن » أول أمره خارجا عن نطاق « المذهب الاتّباعىّ القديم » ، فالخطوط ثقال ، والألوان متميّزة ، ولا

شيء يبعث على التخيل والاستحياء ، فلما حل « باريس » تأثر بالمستحدَث فيها من مذاهب الرسم ، واتجه اتجاهها من بعد ، فأصبحت رسومه خالية من التفاصيل الجامدة ، الخطوط ترف رفيفاً ، والألوان منسجمة يمشي بعضها في بعض على رقة وترفُّق ، والمنظر لايعطيك روعته إلا إن تناءيْت عنه ، فإذا قاربته لم تر فيه إلا بُقَعاً من الألوان لاتُسفِر عن كِيان ! ...

هذا الفنان العظيم الذى دانت له الثروة ، وسعى إليه المجد، كان وليد أبٍ ألمانى وأمٍّ سويدية ، يعيشان فى القرية ، فقضى صباه معهما يرعى قطعان البقر ، ومالبث أبوه أن فارق الدنيا ، فاحتمل الفنان تَبِعَةَ الحياة فى همة ومضاء ، فهو ابنٌ صميم لهذا الإقليم الثائر للاستقلال ، المشبَّع بروح الحرية والتعويل على النفس ...

ظل الفنانُ يعمل ويعمل ، حتى أزهرت مواهبه ، وطار صيتُه ، فارتحل إلى بلادِ أوربية وأمريكية، ومكث فى « باريس » بعضَ حين ،واستقرّ به المقام فى بلدته الطيبة ، حيث الريف

الحبيب إليه ، العزيز عليه ، وما زال فيه حتى اليوم ، تحيا روحه ، وتَتَنَضَّر ذِكراه !...

انبعثتْ بنا الحافلة إلى مقاطعة « داليكيرا » تُسلِمُ فيها بجانب من قرى تمثل الريفَ فى أظهر خصائصه ... ونزلنا فى إحدى هذه القرى ، ليضيفَنا فندق ريفى محفوفٌ بالأزاهير ، ومن دونه تمتَدُّ المراعى والحقول ...

على باب هذا الفندق استقبلتنا ربَّتُه العجوز ، وصبايا أربعٌ مشرقات يُنزْهَيْنَ بلبوس وطنى ، وهن يُزلفن إلينا التحية فى أدب جم ، وعلى محياهن يترقرق بشر وطُهر .

وجلسنا نحتسى أقداحَ الشاى ، والصبايا الأربع يُنشدْنَ لنا مقطوعات شعبيةً رائقة ، وكل شىء حولنا يتنفس أنفاسَ الطبيعة الصافية ، والفِطرة السمحة ، لا صنعةَ ولا زخرف ... فهذه القرية ليست موطن المحافظة على القديم فى طِراز البناء وحدَه ، ولا فى الأثاث وحَسْب ، ولكنها تجمع إلى ذلك طابَع المجتمَع الريفى الذى يتميز بكرم الطبع ، وطيبة النفس ، وشيمة الصراحة والإخلاص !...

وانتقلت بنا الحافلةُ إلى قرية أخرى ، فاجتزنا نهرا على شاطئه نوع من الزوارق طريف ، فهى زوارق تمتاز بطولها كأنها أُعدَّت للسباق ، ولما سألنا عنها أجابنا مجيب بأنها تسمى « زوارقَ الكنيسة » ، وأنها خاصةٌ بحفلات الأعراس ، منها يتألفُ موكبُ العروسين وذويهما فى اليوم الموعود ، فهى تمضى بالموكب إلى الكنيسة ، حيث تجرى مراسمُ الزواج ! ...

وكان مقررا أن نتناول العشاء فى فندق للسياح على الطريق ، واستبان لنا أنه ليس مجردَ عشاء ، وإنما هى حفلةٌ ساهرة ، طاهرة الذيل ، تمتد إلى الليل ! ...

واستهل العشاء بالصَّحن التقليدى ، صحنِ الشطائر ، وتوالت بعده الصحونُ والصحافُ مختلفةَ الألوان ، وتعـــددت معها الأشربةُ المُنْعِشَات ، وتعالى التضاحك والتصايُح والتغنى ...

لم يقتصرْ الأمر على الغناء ، وإنما صحبه الرقص ، بيد أنه رقص يؤدِّيه الطاعمون وهم على المائدة لا يبرحون ! ...

تلك هى المضيفة تنتخب أغنيةً فنلندية خفيفة ، لها مقطع يتكرر ، والرفاق المتقابلون على المائدة يأخُذُ بعضهم بأيدى بعض ، ويهتزون

هزات متجاوبة على إيقاع من ذلك المقطع المتكرر...

حقا إن الفلنديين قوم ما هرون في فن الأكل ، أوهم على الأصح يحذقون فن الهضم ، فهم يبتكرون رقصات هاضمة أثناء الطعام ، لكى يتاح لهم أن يطيلوا على المائدة جلوسهم آكلين ! ...

ولم يترك الجمع مائدة الرقص ، أو رقص المائدة حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ، قبل منتصف الليل ... فعادت بنا الحافلة إلى القطار ، وضوء النهار الخافت يملأ الأفق ! ...

وأذن القطار بالمسير ، متجها إلى الشمال ...

اليوم الثالث

ذلك هو القطار يجدُّ بنا مخترقا مناطقَ الشّمال ، أو بالأحرى يقتحم بلاد « اللاّب » ... وسيطول احتباسُنا فى جوف القطار إلى الثامنةِ من المساء ، ثم يبدأ البَرْنامجُ الموعود ! ...

أنت لا شك قائل :

إذن هذا بَرْنامجٌ ليليٌّ ساهر ....

وما هو فى الحق إلا بَرنامج فى ضوء الشمس ، فإن الشمس فى هذه المِنطقة لا تُؤْذن بالغيوب ، ونحن نعيش هنا فى نهار دائبٍ مديد .

الجو مبترد ، ولكن القطارَ دافئ ، ونحن فى بَهوه على مقاعدَ مريحة نتملىّ مِنْ حولنا مشاهد الكون ... غاباتٌ من حيثما تتلفت ، وديباجةٌ خضراء تكسو كلّ رقعة من الأرض ، وربما انفرجتْ إحدى الغابات عن بُحَيْرة أو مَسيل ماء ، ثم لا تعتم الغابات أن ينطبق بعضُها على بعض ، يجوس خلالهـا القطار

الزاهي ، كأنه زهرة مضيئة تنساب بين الأعشاب .

لزمتُ النافذة لا أريمُ مكاني فأثارني مضخم الصوت يدعو الجمع إلى المركبة الأولى ، كي يشاهدوا رواية سينمائية ، فتعوّذت بالله من هذا الشيطان السينمائي الرجيم ، الذي يلاحقُنا حتى في قطار هارب من أنوار المدينة ، سارب في ثنايا الغاب !

هيهاتَ أن أتركَ مقعدي ، لأتعوض من هذه المناطق اللاَّنية الطبيعية الطريفةِ مناظرَ من تدبير الإنسان ! ...

حسبنا مكنً يا حسانَ « هوليودَ » ، فلتتركنا وقتا نستمتع بشيء أثمنَ وأغلىَ من جمالكنَّ المصنوع ، هو جمال الطبيعة البكر ، جمال الفطرة الوحشية التي تأتلف فيها السذاجة والبراءة والرّهبة الرائعة ، فلَعمري إن هذه الفرصة نادرة ، وإن هذا اليوم مشهود .

وبعد أن أصبنا غَدَاءنا ، أعلنت المُضيفة أننا مجتازون بقطارنا خط المنطقة القطبيـة في الخامسة ، وأن القطار واقف بنا هنالك لنحتفل ببلوغنا ذلك « الخط الجغرافي » في تلك الأصقاع ! ...

وبينما نحن في فرحة بهذا النبإ، إذ قالت المُضيفة :

إن عليكم أن تحذروا ما يتفشى المنطقة هنالك من بعوض ، وليس لكم من حيلة لا تقاء أذاه إلا أن تدهنوا وجوهكم وأيديكم بسائل زيتى تستطيعون الحصول عليه من صيدلية القطار ، فهلموا إليها جميعا .

واهاً من هذا المخلوق البغيض الذى نرادُ على استقباله ، والمُكوث معه . ما لنا ولمنطقة البعوض نسعى إليها طائعين ، ونقفُ عندها مختارين : كأننا نسعى إلى زيارة حبيب مرموق ؟...

عجبتُ لأمر هذا البعوض ، ما علة انتشاره فى تلك البقعة ؟ ... وكيف عجزتْ حضارة «السويد» أن تستأصل شأفته ، وتريح الناس من شره ؟ . . .

سألت أهل الذكر من الرفاق ، فكان جوابهم أن هذه المنطقة تكثر فيها المناقعُ المتخلفه عن الأمطار ، وما أسخى السماء بالأمطار فى تلك الديار ... والصيف فى «السويد» لايزيدُ على أشهر ثلاثة ، تشرق فيها الشمس ، ثم يَقلّ

سطوعها حينا بعد حين ، فتتكاثف الظلمة مُعْظَمَ الوقت ، وتهمِى الأمطارُ على غابات كثة تحتفظ بالماء فى أرضها الغائرة ، ولا تأذَن لأشعة الشمس أن تخترقها وتجففها إلا بقدر قليل ، ومن ثم تظل الأرض مشبعة بالماء تنضح بِرَكاً ومَسَايِل ، وليس من وراء ذلك إلا أن يتخلَّق البعوض ، ويحيا حياة طيبة مباركة فى أمان الله ! ...

أوْفَى بنا القطار على الخط الجغرافى العظيم ، فنزلنا منه قُطا لعنا شِبْه قرية من بعيد ، ومشينا خطوات إلى خيمة من « اللاَّب » ، وعن كثب من الخيمة وقف رجل فارع القامة ، تهدل على وجهه لحية ناصعة مستعارَة ، وتنبسط على شعر رأسه المستعار قلنسُوَة صوفِيَّة كبيرة ، وقد ارتدى معطفا من الفرو الغليظ ، واتخذَ فى قدميه حذاءً طويلا من الجلد الثّخين ، ومن حوله نفرٌ من اللابيِّين أقزام ، فيهم الشيخُ وفيهم الشابُّ وفيهم الصبيُّ ، وهم فى ملابسَ زاهية زرقاء وحمراء ، على رءوسهم طراطيرُ ذاتُ ألوان .

وتقدمت المُضيفة أمامنا إلى الرجل ورهطه ، وأشارت .

إنهم تقول : هذا صاحب الجلالة الملك « بوارا » ، ملكُ الإقطاع الشمالي القطبي ، وأولئك وزراؤه وأمناؤه وحاشيته .

يالها من مسرحية ظريفة ... مسرحيّة يأبون إلا أن يجعلوا منا نحن ركابَ القطار بعض أبطالها الأفذاذ فإن علينا أن نتدانى من أعتاب المليك المعظم ، وأن نقدم له ولاءنا قبل أن نطأ حماهُ الأمين ! ...

وما كدنا نجهدُو نحو جلالته المهيبة ، حتى خرجَ علينا من الأحراج القريبة أفواج من البعوض الذى توعدتنا به مُضيفة القطار قبلَ ساعات .

إنه جيش عرمرم وحقٍّ السماء .... ولكنه جيشٌ صامت ركين ، لا يطن طنين البعوض المستضعف الذى نعهدُه فى بلادنا المتواضعة ...

أىُّ بعوض هــــذا ؟ وماذا نسمى الجراد ، إن كانت هذه الحشرة الكبيرة الجثة من فصيلة البعوض ؟ ...

رفعتُ بصرى إلى صاحب الجلالة القطبية ، ولسان حالى يقول :

أهذه قواتك المسلحة الجوية يارب التاج والصولجان ؟ أتراك أطلقتها لتحيي بها ضيوفك المسالمين ، أم لتملأ بها قلوبهم من خشية لك وترهيب ؟ ... ما أحقك بأن تسمى ملك البعوض. وما أحق مملكتك اللابية بأن تزهو وتفاخر بهذا الجراد البعوضى المبثوث ... هذا الجيش الذى ينافس أحدث أسلحة الطيران فى جيوش الدول المتحضرة !

سمعنا ملك البعوض يتكلم ، فهذا صوته العريض المجلجل يلقى علينا خطبة ترحيب ، وما إن أتمها حتى مر رنابه نمد له الأيدى مصافحين ، وتحنى له الرءوس مكبرين ، فأسلم إلينا أوسمة عليها شعار مملكته الغراء ، وشهادات مذهبة مدونة بها أسماؤنا تثبت مثولنا بين يدى عرش « اللاب » العظيم ! ...

حمدت الله على رجوعنا إلى القطار ، وقد نجونا من ذلك الجيش الطائر ، فلم تقم بيننا وبينه إلا مناوشات خفيفة كانت فيها أيدينا هى كل ما نملك لأنفسنا من دفاع .

وما كدت أجلس على مقعدى فى البهو ، حتى برزت لى ذبابة ، لا أدرى من أين نجمت ؟ ذبابة واهنة من الذباب

الضئيل المعهود ، جعلت ترف حيالى على استحياء ...
فاستنكفتُ أن أنحيها عنّى ، ولو أنى عُلِّمْتُ منطقَ الطَّير
أو على الأصح منطقَ الحشرات لأشعرتُ هذه الذبابة بترحيبى
بها ، أين هى من ذلك الجراد المتوحشِ العَتِىِّ ، ذلك الذى كابدنا
الحذرَ منه ، والتوقّى له ، وفرحنا بالبُعد عنه ؟ ...

هذه ذُبابة أنيسة إذا وازنّا بينها وبين بعوض « اللاب » ...
لقد ناصبناها العداء فى « مصر » ، وكدنا لها كلّ كيد ، وأقمنا
من شخصها تمثالا بشعا ضخما للتشهير بها وللتشنيع عليها ، وطفنا
بتمثالها فى المسالك والدُّروب لينفر الناس منها ، ويطهروا الأرض
من جُرثومتها ... فما يستطيع القوم هنا أن يصنعوا لهذا الفحل
المستأسد الضارى حتى يكفوا أذاه أو يبيدوه ؟ ...

لطالما أنكر الإنسان مخلوقا مما حَوْله ، فأنحى عليه
باللّوم ، وظن به الشرّ كل الشر ، وإذا هو بعد حين أمام
مخلوق جديد يجعله غير آبه بما كان ينكر من قبل ، بل
يحسَب أن ذلك المخلوق القديم مَلَكٌ من الملائكة طَهُور ،
فيشكر الله على أن قدّر ولطف ! ...

صاح بنا مضخم الصوت فى القطار ، يقول :

الآن اجتزنا خط القطب ، فمن شاء أن يكتب بطاقة لأهله وذويه فليفعل ، البطاقات معدة ، ومكتب البريد مفتوح .

سارعنا نزفّ إلى أهلنا وذوينا نبأ بطولتنا السعيدة ، بطولتنا اقتحامنا مملكة الصقيع فى فصل من فصول الزمن ليس فيه صقيع ، مباهين بأننا على رأس القطب ، والقطب منا بعيد بعد الشمس ، مفاخرين بأننا فى مملكة « اللاب » ، ونحن لم نر من هؤلاء اللابيين إلا ملكا زائفا تحدق به حاشية زائفة مثله ! ...

تلك هى حقيقة الحياة ، يضحك منا خلق الله مخادعين ، فنضحك نحن من أنفسنا مخدوعين ! ...

إنه حقا خط القُطب ، ولكنه خط توهّمه العلماء ، وحفلت به المصوّرات الجغرافية مرسوما بالقلم ، وأنت تتوهم أنك تتخطاه حين تجتاز منطقة الجليد ... فإذا بحثت عنه على بسيط الأرض ، لم تبلغ مطمح النفس ...

هذا الفاصل القطبى يماثل خط العرض الذى يفصل

كوريا » الشمالية عن أختها الجنوبية ، وهو خط لامعالم له على الطبيعة إلا مخافر للجند تزينها الأعلام ، وما أشبه هـذه المخافر بخيمة ذلك الملك اللاّبى المستعار ، وما أشبه جند المخافر بتلك الحاشيـة الملكية اللابيّة التى هى زيف وتمويه ...

الأرض أرض الله ، مبسوطة لخلق الله . وما هـذه القيود والحدود إلا خدع وأوهام ! ...

أدى بنا القطار إلى « جاليفار » ... بلدة صناعية فى منطقة غنية بمناجم الحديد ، فافتتحنا زيارتها بالذهاب إلى كنيستها التى تختلف عما شهدت من المعابد فى عديد من البلدان .

الكنيسة عصرية الطابع ، فالمبنى ليس بالضخم ولا بالفخم ، وإنما هو صغير رشيق يشبه مغنى قرويا مما يقـام فى البلاد الأمريكية ، فكأنما أراد به أصحاب الكنيسة أن يصبغوا الدين صبغة عصرية فيها فتوة وتجديد .

على باب الكنيسة حيانا شاب وسيم المحيا ، مألوف الزى ، حسبناه بادىء بدء أحد الزوار ، وإذا هو القس ، وجهه حيى حياء عذراء دالفة من الخدر ...

وطاف بنا القسُّ فى أرجاء الكنيسة ، فلم نر إلا إشراقا وبَساطة ورَشاقة ، لا صور قِدّيسين تزْحم الحوائط ، ولا نوافذ كبيرة زجاجُها مُلوّن ، ولا تماثيلَ عابسة تبعث الرهبة ، ولا ضرائحَ تُذكِّرك بِرَوعة الموت ، وتثير فى نفسك وطأة الحساب والعقاب .

الصوَر التى تكسو الجدرانَ صور لشجرة التفاح ، عليها ثمره الفضىّ الشهىّ ... وكأنهم استعاضوا عن كل شىء بهذا التفاح ، رمزِ الخطيئة الآدمية الأولى ، وشعارِ الخروج من الجنة إلى دنيا البشر ، فاتخذوا منه أسلوبا لبِقا مهذّبا فى الوعظ والتذكير ! ...

رجال الدين فى هذه البلدة قد ثاروا على ما يسودُ بيوت العِبادة من عُرف وتقليد ، فهم يؤثرون البساطة الحقة ، والإيحاء الخفيف ، وعندهم أن روح الدين هى الكفيلة بالتأثير فى النفوس ، فإن لم يكن لروح الدين تأثيرها الحر الطلق ، فلا خيرَ فى مظاهرَ ثقيله فاجعة ليس أثرُها بالباقى ولا بالعمق ! ...

خرجنا نُطوف ببلدة « جاليفار » ... هى بلدةُ عُمّال ، دُورُها فيها على طراز ريفي عصرى ، تكتمل له وسائل الراحة ، والطرقاتُ فيها تتوافَرُ بها مظاهرُ النظافة والتنسيق .

وسرنا وقتا فوق مناجمِ الحـــديد ، ثم بدا بجوارنا وادٍ منخفضٌ تتجلى فيه أبنية المناجِم . وما يتصل بها من خُـطُوط السكك الحديدية المشتبكةِ ، وقـــد قيل لى هنا لك إن الإنجليز أول من استغلوا تلك المناجم ومدّوا هذه الخطوط ، ثم خلفهم عليها السويديون أصحابُ البلاد .

وفى البلدة قصدنا كنيسةً لاتينّة متغلغلة فى القدم ، أسهم فى بنائهـــا يومئذ أهلُ السويد بأمر من ملكهم القائم ، والكنيسةُ متناهيةٌ فى السذاجة تحسبها الزائر مخزنا مطبقامن مخازن الحاصلات .

وفى الساعة الحادية عشرة من هذا المساء ، والضوء فى نواحى الأفق كصبغة الشفق ، يحاكى ضوءَ ساعة الأصيل ، نودى بنـا أن نتأهب للصعود إلى قمــة الجبل ، كى نشهد شمس منتصَف الليـــل ...

واحتوتنا السيارةُ الحافلة ، ونحن صامتون نتأملُ فيما نستقبل

من ظواهر كونية عجيبة ، ظواهر انقلاب أوضاع الحياة فى توقيتة الشروق والغروب ، وفى تعاقب الليل والنهار …

لبثتْ الحافلة نحو ساعة تُعانى التصعيدَ فى طريق جبلىّ أغبر تخلُص من مسلك وعثر إلى مسلك أشدّ وعورةً ، حولها صخور تتلوها صخور ، وعن كثَب منها حفائرُ المناجم هائلة المهْوىَ .

سموْنا بأبصارنا إلى السماء ، نلتمس عندها الخلاصَ من وَعْثاء الأرض وجَهامة الطريق ، وعند السماء تفريج الكربة وتسلية النفس ، وتلك هى السماء تمتع أبصارَنا بضوء أرْجوانىّ لطيف يغمر الأفق ، فيبعث فى نفوسنا طمأنينة ودَعة .

وتسنمت بنا السيارة الحافلة بقعةً كأنها القمة ، وإنها لبقعة نباتها مجعَّد شائك ، وهواؤُها قارس ، وقيل لنا انظروا فى ساعاتكم فأنتم الآن فى ضيافة الشمس ، على حينَ أن الليل فى المنتصف !…

وتطلعتُ إلى الجهة المقابلة لتلك القمَّة ، فألفيت السحب تبدو وتختفى ، تتكاثف وترِق ، كأنها لثام يتراءى خلفه قرص الشمس أحمرَ يتوهج …

يا لله لهذه الحَسناء التي يدعوها الحياء ألاّ تُسفرَ بحسنها للنظر المنهوم ...

أفي منتصَف الليل نحن حقا ، أم في ساعة الغروب ؟ ...

لقد شهدت الشمس قبيل المغرب في « الإسكندرية » على شاطىء البحر ، فإذا هي على نحو ما أشهدُها الآن والليلُ منتصف ... قرص لمَّاح ينشرُ صِبغته الأرجوانية حواليه ، فيسحر الأعين ، ويهُز المشاعر ...

كنت أقف لأتملىَّ هذا المشهد دقائقَ . وما هي إلا أن أرى القرص الأحمر يتهادى في نزوله إلى البحر ، فيتلقاه الموج نَشوَان ، ولا يلبثُ أن يطفِىء وهجه ، ويطوىَ صفحتَه ، ويبدِّل الكون منه غلائلَ الظلام ...

أما في هذه البُقعة ، فإني أمكث الدقائق تتْبعُها الدقائق ، والقرص أمامي زاه خلف لثامه ، كأنما يبتسم لىَّ قائلا :

لا غروب اليوم أيها الهائم المفتون ، فلترو من التملي ما طاب لك أن تتروى .

وتراخى بي الوقت ، وأنا محدِّق في الأفق ، أرقب ساحرة

الفلك ... فألفيتها تنتقل ناحية المشرق على رِفق ، وهى على حالها من التَّـوَهُّج والسُّطوع ...

أيها القرص العظيم ... أأنت حقا شمس المشرق التى نودّعها كلَّ مساء بدعاءٍ من شرُفات المآذن يرِنُّ فى السماء ، معلنا اختفاءك من الدنيا وانسلاخ آية النهار ، ثم نستقبلك عند الفجر بهذا الدعاء الذى تتجاوَبُ به أنحاء الفضاء ، مؤذِنا بعودَتِك الظافرة وانتساخ آية الليل ؟ ...

أأنت حقًّا شمسنا التى تذهب عنا كل مساء إلى مجاهلَ نائية وتثوب إلينا كلَّ صباح من آفاقٍ بعيدةٍ ، فنعجب من اختفائك الذى ليس منه بد ، وتدهشنا عودتك التى لا تتخلف ، وتخامِر نا فيك أشتاتُ الظنون ؟

هنا على قمة هذا الجبل الصخرىّ الأَجْرد ، نكشف خبية سرك ، ونعرف جليَّة أمرك ؛ فلا مجاهل تقتنصك ، ولا بحار تبتلعك ، ولا كهوفَ تخفيك وتحتجزُك ، وليس من ليل ينسدل عليك فيحميك ، ولا من مرقد لك فيه راحة إلى حين ، وإنما هو الإشراق الدائم والسطوع الدائب فى ماض وحاضر وآت .

لقد بنت كما أنت ... كوكبا متألقا يجرى ويجرى ، لا ألغاز تحيط به ،ولا غموض يشوبُ نصوعه ...

ما شأنكِ أيتها الشمس بالخفاء والإبهام ، وأنت التى تزيحين عن الدنيا غواشىَ الظلام ؟ مالك وللأسرار والأستار ، وأنت عروسُ الوُضوح والجهار ؟

أنت ياحسناء السماء بهجة ورُواء ... تتجددين مع الدهر ، فليس لأيامه منكِ منال ، جمعتِ بين القوة والعظمة والفتنة ، وأفضْت علىَ الكون نورك الخلاب ، وظللت كنز الحياة ومصدر الخير للنباتْ والحيوان والجماد ، حتى فُتن الناس بك فعبدوك فى خوالى العُهود والأزْمان ، وما كان عبثا أن أنظر إليك الآن فى خشوع وإكبار ، وأنت تتخطرين مَهيبةً على قمم الجبال ، تحفّ بك قِطَعُ السحاب ! ... فأنت حقا من صنع خلاق عظيم ! ...

أرجعتْنا الحافلة إلى مخادعنا فى القطار ، والساعةُ قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ، والشمس مُصعِّدة فى برجها الرفيع ، معتليةً الأفق البعيد ، متهيئةً لتألقٍ جديد ...

وعلى وسادى ، أطلقت العنان لأفكارى ، وأنا فى غفوة

الحالم، متراخى الأوصال ...

وجال بخاطرى سؤال لا يَقَرّ له قرار :

ما حكم الصائم حين يحل به « شهرُ رمضانَ » فى هذه الأصقاع ؟ ... إنه إزاء نهار دائم لا ينقطع ، فأين الخيط الأبيض والخيط الأسود ، يتبين أحدهما من الآخر ، ليُمْسك الصائم عن طعام وشراب ؟ ...

أيظل طولَ الشهر كمن شأنهُ صيامُ الدهر ؟

لستُ من أهل الشريعة فأفتي ، وما أنا هُنا فى « شهرِ رمضانَ » يقتضينى الأمرُ أن أستفتى ، وما أحسَب هذا الشهر الكريم يزر فى هذه المنطقة القُصْوَى بصائم يطلُب الفتوى ! ...

أسدلتُ ستارة النافذة ، لتحجُب عنى ضوءَ الشمس ، حتى أوهم نفسى بأن الليل قد حلّ ، وحان الاستسلامُ للنام ! ...

اليوم الرابع

ظللنا فى القطار إلى الضحوة العالية، وقبيل الظهر احتملتنا السيارة الحافلة إلى « بورجس » . وأصدقُ تسميةٍ لها مدينة الشلال ، فإن فيها شلالا عظيماً تُقام بجواره محطة كبيرة لتوليد الكهربا .

كان أولَ عمل لنا فى المدينة أن ضمتنا قاعة للمحاضرات ، تحدث إلينا فيها مندوب من هيئة العمال ، فشرح لنا مستعينا بالمصورات : كيف يستغلون الشلال فى توليد الجوهر الكهربى النفيس .

واستمتعنا بطوفة فى المدينة العمالية الرشيقة ، بيوت العمال فيها من خشب ، وهى مقامة بحيث يسهل تفكيك أجزائها ونقلها إلى حيث تُريد ، لتقام من جديد .

وعلة إيثار القوم لهذه الطريقة فى إقامة البيوت العُمالية أن العمل يجرى فى تلك المنطقة لتنظيم الشلال ، وإقامة المحطة

الكهربية ، وهو عملٌ ينتهى عما قليل ، ومن ثم تبطل الحاجة فى المنطقة إلى العمال ، فينتقلون إلى منطقة أخرى تقام فيها منشآت جديدة ، فلتنتقل معهم بيوتهم التى سكنوا إليها فترةً من الزمان ، ولتتبعهم كلما رحلوا إلى ناحية ، كأنها خيامُ البدو يقوّضونها ويحملونها معهم لينصبوها حيث ينتجعون .

سرنا صوب الشلال ، وشرعنا ننزل فى مهبطه ... مسلك صخرى صعْب ، أرضه ريانة ، وحواليه شجيرات عجاف لا تنت إلا بجهد ، فهو طريق لك أن تصفه بأنه عفْو الطبيعة ، فما جالت فيه يد الإنسان بكثير من التمهيد والتعبيد .

كنا نقفز على الطريق تارةً ، ونتمهل تارة أخرى نرتفع حينا مع الأنشاز والجسور ، وننخفض حينا مع المنحدرات والوِهاد ، حتى وافينا الموضعَ المختار فى هذا المشهدِ الفريد ، مشهدِ الجُزر أو أشباه الجُزر التى تواجه الشلال العظيم .

وقفنا لحظات نسرّح البصر ... الماء فوّار يَرْغو ، وهو يتتابع على دَرج الصُّخور كأنه سباع استبدتْ بها الضراوة

والاهتياج، فانقضت يلاحق بعضُها بعضاً ، وزئيرُها الوحشى كهزيم الرعد يرتجُّ له الفضاء .

إن هذا الموج الثائر لينزل إلينا، وقد انكسرت حدّته ، وفترت شِدّتُه، ولكنه لا يفتأ متسايلا على أرضٍ تتناثرُ فيها الأحجار ...

وعدنا نرتقى المسلك الصخرى الزَّلِق ... لكى نستأنف زيارة قمّة الجسر ، جسر الخزان الذى أقاموه ليحاصروا به الشلال عند رأسه ، ويلجئوه إلى مضيق فيزيد ذلك من تدفُّق الشلال واندفاعه ، ليتيسر استخدامه فى التوليد الكهربى ! ...

سمت بنا السيارة الحافلة إلى هذا الجسْر السامق ، كأنما هو الطود الباذخ، فألفينا قمته مستطيلة مستعرضة ، ينفسح فيها طريق مازال العمل جارياً فى إعداده .

فى هذه القمة تهيمنُ الصناعةُ على الطبيعة ، إذ تتحكم فى الشلال وتخضعه لمأرب عمرانى جليل . فهذا الشلال الذى أوسعت الطبيعةُ من جوانبه ، فبددت من قوته ، وأضعفت من سطوته ، تعمد إليه الصناعة بهذا الجسر ، فتدفع به فى حيز محدود ، حتى

يحقق المنفعةَ لمعشر من بنى الإنسان !...

وأنت فوق هذا الجسر تنظر يَمنة ، فإذا ماء ينبسط هادئا كأنه بحيرة شاسعة ، وتنظر يَسرة ، فتروعك المهاوى الصخرية السحيقة تتساقط فيها شآبيب الماءِ من ذروة الشلال .

هزنى تنَاوح الرياح كأنما أنا حقـا على ذروة جبل ... فقنعت من وقوفى بهذه اللّحَظات ، خشيةَ أن تطوح بى الرياحُ المتناوحة إلى أعماق الثّلج ، فأكون لها صيدًا من حيث لا أريد أن أكونَ ...

وتناولنا غداءنا فى القطار ، وهو يسيرُ حثيثاً فى مناطق الشّمال ...

الآن تحولت البقـاعُ أراضى مُعشْوشبةً ، وبطاحـًا مخْضَلّة بالماء ، وأقزاما من شجر أجردَ مبعثر ... كل شيء حولنا يُشْعر بالوحشة ، كأننا نرتادُ مجاهل محفوفةً بالمخاطر .

لا ظلَّ لدار ، بل لا ظلّ لكوخ . لم يطالعنا وجه إنسان ، ولا سَحْنةُ حيوان ...

نحن نجتاز رُقعَة قاحلةً تسودُها البركُ والمناقع ، فهى

تملكه البعوض ، تدفّ أجنحتُه ، ويسرى طنينُه ... أنكون في بلاد الأقزام من الجن ؛ تلك البلادُ التي هي عمادُ الأساطير في قصَص أطفال « السويد » ؟ !

قيل لى إنها مواطن « اللاّب » ... فأين أولئك اللابيّون الغُرُّ الميامين ؟ أتراهم قد تحصّنوا بالشقوق والكهوف والمغارات ؛ لا يُحبون أن تمتد إليهم الأبصار من نوافذ القطار ؟ ...

وقد زاد من عُبُوسة هذه البقعة أن الجو مكْفَهِرّ ، والسحابَ أقْتَمُ ، والصقيع على أديم الأرض يتساقط ...

جَدّ القطار في سيره ، حتى أصبحنا على مبعدة ألف وخمسمائة كيلو متر من « أستكهلم » فلاحظنا أن البقعة تتغير وتتطور ... جبالٌ تزهو بقاماتها العالية وتيجانها المرصّعة بالثلوج ، وبحيرةٌ تصاحبنا على مدى الطريق ، وربما هربت من أعيننا في معاطف الوهاد ، ثم برزَتْ ضاحكةً مستبشرةً من بين الفِجَاج والشِّعاب ولا تلبث أن تزايلَ في بطون السهول والبطاح ، كأنما تلاعبُنا لُعبةَ الاستخفاء ...

وأمسك القطار عن سيره في محطة « بجوركلدن » حيث يقضى

نيلته مستكينا إليها هادىء الأنفاس .

في تلك الأمسية خرجنا نركب الحافلة إلى فندق في تلك المنطقة الخضراء الرائعة التي تكتنفها الجبال من كل جانب ، وإنها لمنطقة زاخرة بالمُتَع لمن يَهْوى المغامراتِ من السُّيَّاح ...

هنا ساحة « جولف » لمن ينشُد لعبة « الجولف » ...

وهنالك نُزهات على الأقدام إلى مواطنِ الجليد ...

وثمة قمة ترحب بمن يطلب التصعيدَ في الجبل، يرافقه أدلاءُ من « اللاب » يرتقون معه المراقي ، ويجنبونه مداحِضَ الزَّلل ثم يعدون له القهوة على القِمة في جو قَارٍّ تعصفُ فيه الرياح .

لا مأرب لي في شيء من هذا كله ، فلأقنع بغير هذا كله ... أن أمكث في الفندق أمام النوافذ الفسيحة أستمتع بمرأى الطبيعة على ضوءِ من شمس الليل ...

راعني في ذلك الفندق أن نوافذَه الواسعةَ منسقةٌ على هيئة إطارات اللوحات الكبيرة ، فأنت حين تجلسُ في البهو ، وتتجه بنظرك إلى النافذة ، وترى خلفها سفح الجبل وصفحة البحيرة ، فكأنك حيالَ لوحة زيتية عظيمة على الجدار ، تقوم

النافذة فيها مقام الإطار ...

أمام هذه اللوحات الطبيعية الفاتنة، تناولتُ قدحاً من الشاي، ولقيماتٍ من الكعك، على نغماتٍ موسيقية وديعة ...

ذلك هو الليلُ يوشكُ أن ينتصف، وهأنذا أرتدي المعطف وأتدثر بالشملة، وأحكم على رأسي الطرطور، وألف حول عنقي اللفاع، ثم أترك الفندق إلى القطار، يصافح وجهي ما يتنفس به الجو من برودة لاسعة ...

وفي القطار حانتْ مني التفاتةٌ إلى مقياس الحرارة، فإذا المقياس يسجل درجتين فوق الصفر ...

إنه الشتاء لا ريب فيه ...

مرحبا بك يا شتاء «يولية» في منطقة القطب، منطقة انقلاب الطبيعة المألوفة في بلاد الناس ! ...

اليوم الخامس

رحلتنا القطارية فى يومها الخامس ، وقد أوغلنا فى أصقاع الشمال من بلاد « السويد » ، والقطار الآن قابع عن كثب من بحيْرة « تورنتراسك » .

اليوم يومُ رياضة أشبه بالرياضة التى يتمرس بها شباب الكشافة ، وإنا مصيبون غداءنا فى العراء على ضفة البحيرة ، فى بقعة خَلوية هى موطن صغير من مواطن « اللاَّب » .

خرجْنا من القطار ، وقد حمل كل منـــا علبة من الورق تستوعب طعامه وشرابه ، وكذلك حمل ما تمس إليه حاجته من معاطف وألفعةٍ وشمَلات ... فالجو مقرور ، والريح طائشة ، فليكنِ معَنا من الدُّروع ما نتقى به الأذى .

هنالك على مرفإ البحيرة ، كان يرتقب وفودنا زورق بخارى ، فأما طريقنا إلى المرفأ فهو مُتَحدر شديد التحدر ، إنه طريق صخرى ، أرضه لزُوجة ماؤها ضحضَاح ؛ وهو ينشق

بين أشجار متكاثفة تعوق السائر ، فلننقل خُطانا على حَذر ، ولُنكابد السير على هـذا الطريق ، وأكتافنا محملة بلفائف الأمتعة ، وأيدينا مثقلةٌ بعُلب الطعام .

وما هى إلا أن هجمت علينا أرجال من البعوض البغيض ، ونحن فى المأزق المخوف الذى لانحسد عليه ... أتراه التمس منا هذه الغِرَّة ، وأدرك أن أيدينـا فى شغل عن دفعه ، وأننا مجهودون بما فوق أكتافنا وما تحت أقدامنا فى الطريق الوعْر الزلج ، فطلب الطعن والنزال ، وأيقن أنه قاهرنا لامحالة ؟ ... مهما يكن من أمره ، فلابد من مكافحته ، فإن لسعةً منه خليقةٌ أن توردنا موارد الهلاك .

وبينما نحن فى جهاد عنيف ، إذ بدا لنا عن اليسار منظر رائع يخلب اللُّب ، منظر شلال هَادر ، لاندرى من أين هَبط ؟ هو بجوارنا يتواثب مقهقهاً لعُوبا أشبه ما يكون بطفل مراح ، ولكأنى به ينبجس من بين الصخور العاتية ، مفلتا منها ليلهو ويعبث ، وإنه ليجرى غير مكترث بشىء ، فتبرز له حجارة مسنونة عابسة لتكفّه عن اللهو والعَبث ،

وتعيـــدَه إلى محبِسه من أعالى الصخور ، ولـكنها لا تملك له ردًّا ...

أهلا بك أيها الشلال العابثُ الجرىء ، تتجلى علينا بروعة منظرك ، فنأنسُ بك ، على الرغم مما نحن فيه من مِحنـــة وحَـالٍ ضَنْـك .

هذه بُـداءة عجيبةٌ ليومنا الحاضر ؛ وإنها لعنوان صحيح لِنُزهة اليوم كله ، نزهةَ تتسم بطابَع المغامرة ، وتنبسط عليها صبغة طبيعية فطرية ، ليس فيها شىء من رفاهية المدنية وما يتوافر لهـا من وسائل الراحة ، وهى تريدنا على أن نكون من أبناء الطبيعة فى هذا اليوم ، نحيا كما كان يحيا فى الجبال والأدغال بطلُـها « طرزان » !

لبثنا نهبط ونهبط فى ذلك الطريق المنحدر ، حتى تصببَتْ جباهُنا عرقا على الرغم من برودة الجو ، وتـخَلْخَلَتْ رُكبنا من فرط ما عانينا من جهد وصراع .

وبدا لنــــا المرفأ ، وعلى مقربة من حافته زورق بخارى ساذَج ، فوقفنا نتنفس أنفــاس الراحة والفرحة بسلامة

الوصول ... مرفأ ليس بالممهّد ولا بالمُعَبَّد ليستضيف الزوارق ساذجةً أو غيرَ ساذجة ، فلم يكن أمامنا إلا أن نحاول الدخول إلى الزورق ، قافزين إليه قفزا .

مضى بنـــا هذا الزورقُ يمخُر عُباب البحيرة العظيمة المترامية الأطراف ، تتراءى على حفافها البعيدة جبالٌ خُضْر مكلَّلة بالثلوج ، وأخذ الهواء من حولِنا يشتد ، والزورق يترجرج على الموج ، ولكن فتنة الطبيعة كانت تملأ النفس من بهجة وانشراح .

إن الطبيعة هنا تطالعك مختلفةَ الألوان ، فهذه خُضرة وزُرقة وبياض ، تارة تتكاثف وتارة ترِق ، حينا يتميز كل منها ، وحينا يندمج بعضها فى بعض ، وكأنما هى عُشّاق بين فُرْقَةٍ وتَـــلاَق ! .

وانتهى الزورق إلى طرف البحيرة ، فكان علينا أن نقفز منه قفْزاً كما دخلناه أول مرة ، لنعتلى هضبةً عجيبة هى الموطنُ اللاَّ بِى المقصود .

بقعة ساذجة جدباء ، وإن كان فيها قليل من عشب ، ونِثار

من شجر ، وهنا وهنالك أكواخ لابيّة فى وهاد ونجـاد ، حولها الماعز يرعى .

وخرج إلينـا جمع من اللاّبيّين فى ثياب زرق وحمر ، يحيوننا وبين أيديهم — من صنع أيديهم — بضاعة وطنية ... أحزمةٌ من صوف ... خفاف حُـمْر ... عصائب زاهية ... مقاطع للورق من قرن الوعل أو عظمه ... إلى طرائف لا يزهد فى شراء مثلهـا من يطلب تذكار الزيارة والطواف .

وخطونا نجوب البقعة ، ونتفقّد الأكواخ ، فاسترعى انتباهى من بينها كوخ شتوى مصنوع من سيقان الشجر ومن غصونه ، تعـــلوه طبقة من الطين المخلوط بالعشب ، وهو حجرة واحد مستديرة ذات باب واحد ، ونوافذ متفرقة ، كل ما فيه ينبىء بأن أصحابه قد أدركهم شىء من التحضّر ، فاتخذوا المقاعد والمتّـكآت وبعض الرياش ، وأقاموا فرنا يـكاد يـكون عصريا للاستدفاء وطهو الطعام ، وأســدلوا على النوافذ الزُجاجية لطائف الأستـار ، ولـكنّ أثاث الـكوخ يبدو عليه طابع صناعة « اللاّب » ...

ثار بنفسي ما عسى أن يثور بنفسك الآن من سؤال عن هؤلاء اللابيّين : من يكونون ؟ لقد استخبرْتُ أهل الذكر ، فعلمتُ أنهم يزيدون على ثلاثين ألفًا فى المناطقِ الشمالية من « السويد » و « النرويج » و « فِنلندة » وبلاد « الروس » ، منهم عشرون ألفاً فى « النرويج » وحدها ، وعشرةُ آلاف فى « السويد » ... وهم قوم لهم لغتُـهم وعاداتهم وتقاليدُهم فى مجتمعهم الخاص ، ثروتهم الوعول ، مَقامها عندهم مقامُ الإبل فى بوادى العرب ...

ويمتاز اللابيُّون بأنهم قصار القامات ، لهم جماجمُ أمْيَلُ إلى السُّمرة والاحمرار ، وأصداغ عظامها بارزة ، فأما أصلُهم فمختلَف فيه ... منْ قائل إن « روسيا » موطنهم الأصيل ، ومن قائل إنهم سكانُ « إسكندناوة » الأصلاء ، شأنهم فيها شأنُ الهنود الحمر فى القارّة الأمريكية ...

واللابيُّون السويديون شتى ! منهم من يحيَون حياة الترحُّل والانتقال ؛ مثلهم كمثل الأعراب القُدامى فى « البادية » لهم أكواخ بدائية على شكل الخيام ، لكل منها نافذة فى سقفها

مفروشة بالعشب والحطب ، إذا حل بهم الشتاء تركوا الجبالَ ونزلوا إلى البطاح ، حتى إذا جاء الصيف عادُوا إلى الجبال المخضوضرة ، يرعوْن الوُعول السارية . ومنهم آخرون استقرَّ بهم القَرار ، يحمُون لأنفُسِهم مساحات مَن الأرض ، ويستخدمون فيها الأبقار بدَلاً من تلكَ الوعُول ...

وقد أنشأت الحكومة لأولئك اللابيِّينَ مدارس خاصةً ، فيها يقضى صِبْيَتُهم فترةَ مابين السابعةِ والثالثة عشرةَ من السن ، فيتعلمون إلى جانب العلوم العصرية ما ينفعُهم فى حياتهم اللابية كتربية الوعولِ والانتفاعِ بها على خير الوجوه ، وبين هذا النشء اللابىِّ المتعَلم طائفةٌ تأبى أن تعودَ إلى أوطانها التى نزحت منها ، مُؤْثرة أن تعملَ فى المناجم والسكك الحديدية ونحوها ، فتحيا فى « السويد » حياةَ المواطنِ السويدى الأصيل .

حان وقت الغداء ، فتفرقنا جماعات نبحثُ عن مأوى فى هذه البقعة الجرْداء التى تعوى فيها الرياح ، لا مقاعد إلا الأحجار وقِطَع الأشجار ، ولا ظلال إلا ما تمنحك إياه أقزام من الشجيرات المُصوحة ... وألفيتُنى أندمج فى مجموعة أطلق

عليها اسم المجموعة اللاتينية ، أو بمجموعة البحر الأبيض ، لأنها تضم المصرى والأسبانى والفرنسى ، واخترنا لنا مكانا فى ظل كوخ مهدّم ، أحسب أنه كان يتخذ مخزنا للوقود ، وافترشنا ما تُنبت الأرضُ من عشب ، ووضعنا بين أيدينا العُلب التى حملناها معنا ، وشرعنا نُخرج ما حوت من زاد ، فإذا هو شطائرُ منوّعة من جُبن ولحم ، وألوان من رقائق الخبز ، وقنينةٌ من شراب طيب ... ومرت بنا المضيفة توزع علينا القهوة الساخنة فى أكواب من ورق ، فوقعت منا القهوة أجمل موقع فى هذا الجو العاصف .

وأحدقَ بنا الماعز يثغو مطالبا بحقّه فى الطعام ... فقدّمنا إليه ورقات من خس كانت تحتويها الشطائر ، فجعل يشمها ثم لوى فمه عنها . فأبدلناه بها بعضَ الخبز ، فعاف أن ينال منه ، وكذلك صنع حين بذلنا له اللّحم ، وما فتىء يحوم حولنا وهو يَلجّ فى صياحه ... ما حيلتنا فى شأن هذا الماعز الذى يظن أننا من سادته أهل « اللاّب » نعرف ماذا يحبّ من طعام ؟ ... إننا ضيوفه فى هذه البقعة ، وليس هو لنا بضيف ، فلو أنصف

لأتاح لنا أن نَطْعَم من لحمه شواء رَشْرَاشاً على سبيل الحَفَاوة والتكريم ، بدلا من إزعاجه لنا وإلحاحه علينا بهذا الغَضَب والصخَب ... حسبك أيها الماعز الأنيسُ أن تخلص منا ونخلصَ منك ، لا علينا ولا عليك ! ...

ولاح لعينى بين الأشجار شخصٌ يلتقط صورا لجماعاتنا المتفرقة ... هذا مصوِّر الرحلة ، يتفنَّن فى أن يسجل لنا صوراً طريفةً يفضَحنا بها ، سامحه الله ... إنه من ورائنا فى رحلتنا مُندسٌّ يتلقط ، لا نراه فى الجَمْع بيننا ، ولكنه فى الموقف الغريب يطلع علينا فجأةً ، كأنما انشقت عنه الأرض ؛ ليسجل وضعافيه الطرافة أو الشذوذ ، وإذا نحن من بعدُ حين نختلف إلى مَعرِض الصور فى بَهو القطار ، نرى صورَنا مختلفةَ الأوضاع ، وقد اجتمع الرفاقُ عليها يتفرَّسون ويتنادَرُون ! ...

ما أشبهَ مصور الرحلةِ فى القطار بالصَّحفى المستطلع فى الأندية والمَحَافِل ... المصوِّر بالمبتكَر من اللَّقَطَات ، والصحفى بالمستطرَف من الروايات ، كلاهما يترصَّد لكل شىء مثير ، ليفاجىء جمهرة الناس ، بما يجرى بين الناس ! ...

مشينا نطلبُ مرفأ الزورق البخارى ، لنعود به من حيث أتينا ... وكان البردُ على أشدِّه ، والسُّحب تُسَاقِطُ علينا الرذاذ ، ورميت ببصرى فى عرض الأفق ، فرأيت « قوسَ قُزَح » يتلون ألوانه ، بَيْدَ أنه بدا لى هذه اللحظة كما لم يَبْدُ لى من قبل ، إنه لا يزهو فى السماء ، ولكنه مشبوح على سفح الجبل ، كأنه يتمرغ ، والجبلُ يَفْسَحُ له صدرَه ؛ كأنه حَفِى به ! ...

ولما ركبنا الزورق البخارى ، وأوشكنا أن نبلغ به الشاطىء ، فكرت فيما نحن مقبلون عليه ، الطريق الصخرى المتحدر الزَّلِج وصديقُنا الشلال على الجانب ، وهذا الرذاذ المتساقط من فوق ... كيف نصعد فى هذا الطريق مترجِّلين ؟ لا ريب أن التصعيد مغامرة ليس لنا بها طاقة ، وهيهات أن يكون لنا فيها أمان !

وما كدت أجهر بمخاوفى ، حتى ساقتنا المُضيفة خلفها على الشاطىء ، وهى تعلن أن هناك وسيلةً أخرى معدة للتصعيد غير السعى على الأقدام ... ووقع بصرى على جَرَّارة تماثل

جرارات الحرث فى الريف ، لها شكل دبابة حربية ، وقد شد إليهـــا بسلسلة ضخمة لوح خشبى عتىّ . له حواجز من قوائم خشبية تصل بينها حبال . لم أر لهذا اللوح عجلات يجرى عليها ، ولكنه معدّ لينزلق انزلاقا على الطين فى طريق وعر غير الطريق الذى انحدرنا عليه حين جئنا فى الصباح .

ازدحم بنا اللوح ونحن عليه وقوف ، وتحركت الجرّارة تشدّنا صاعدين ، ولك أن تتمثل نفسك فى هـذا المشهد الفذّ ، أو هـذا الملعب العجيب ، وقـد زجّ بك على لوح يتصعّـد فى مسلك مشتبك الشجر ، عسير المطلع ، فأنت بين تمايُـل وتحامُـل وتضاغُـط وتساقط ، لاتملكُ لنفسك من سكينة ولا لجَسَدك من قرار .

وبينما نحن فى هـــذه المحنة ، إذ بَرقت لنا آلة التصوير خلال الخمائل ، ومن خلفهـا المصور الماكر متحفز يسترق إلينا النظـر ، وهـــو يوارى ما يتحلى به فمُه من ابتسامة دهشـاء ! .

وطالعنا وجهُ القطار ، فوثبنا إليه من اللوح وثبا ، وقـد

خيل إلينا أن تلك الدبّابة اللعينة تمتد وراءنا تحاول اللّحاق بنا قبل أن نُفلت ! ...

وأوينـا إلى مخادعنـــا فى القطار نتنفس الصُّعَدَاء ، ونتناقلُ الضّحكات من هذه المغامرة التى مارسنا فيها لونا من حياة الطبيعة الفطرية .

الآن نحمد لهذا اللون أننا استمتعْنـا بما فيه من جِدّة ، وتذوقْنا ما له من طرافة ، ولكننا نحمد ذلك بعد أن عدْنا من المغامرة فى أمن وسلام ! ...

اليوم السادس

لم أكد أفتح عيني ، وأنظر فى ساعتى ، حتى سمعت نَقَرات خفافاً على الباب ، يتبعها صوت قائل : صباح الخير ... استيقظوا يا سادة ... الساعة منتصف الثامنة .

لقد ظهر مرة أخرى هذا « المُسَحِّر » الظريف الذى يوقظ النُّوَّام فى القطار ، إنه هو و « المُسَحِّر » الشرقى فى « شهر رمضان » صنْوان ، هذا يوقظ للسحور بضرب الطبل والإنشاد ، وذلك يوقظ للفطور بصوته العذب ونَقَرَاته الخفاف .

وما أسرع أن تأهبنا لنخرجَ بعد قليل ...

هذا يومُنا السادس فى رحلة قطار الشمس ، وهو اليوم المخصَّص لزيارة « نارفيك » إحدى مدن « النرويج » الساحلية فى أقصى الشَّمال ، ولقد دخل بنا القطارُ أرضَ « النرويج » فى الصباح المبكر ، وهأنذا الآن بجوار النافذة أتطلع ، فإذا

الطبيعةُ قد اكتمل لها جلالٌ وبهاءٌ وفتنة ، ولكن فى إطار من وحشة ورهبة ، فكل ما تقع عليه العينُ رائعٌ أخّاذ ، بيد أنه هائل مخُوف .

سُور جبلى يمر القطار على حافاته ، ومن تحتــه خليج بعيد الغوْر ، يتسع حتى تحسبَه بحيرة ، ثم يضيق حتى تظنَّه قناة ، ومن حوله أسوار جبلية تطفل عليها بعضُ النبات ، وراح ينمو فى جرأة ، ومن ورَاء ذلك غابات شواسع لايدرك مدَاها الطرف ، وبين الفينة والفينة يلتمع شلال ضخم ترى هَيْجَتَه وتوثُّبه ولا تسمع له من هرير ، وفوق ذلك كله سماء تتطاير فيها أسراب الغمائم الثقال .

إنى لأتطلع حَوَالى ، وكأنى أهرب بأنظارى من أن تنحدر لتقع فى هــذه المهاوى السحيقة التى يمرُّ القطار على شفيرها الدقيق ... فما فرَطت منى نظرةٌ إليها إلا وضعتُ يدى على قلبى خشية أن يزيغ ، وفى كل لحظة أُوجس خيفةً من أن ينحرفَ القطار إصبعا فيلقى بنا إلى الحضيض ، حيث تمزقنا هـذه الصخور المسنونة كأنها أنياب الوحوش وبراثن السِّبَاع .

كيف لا يستبدُّ بى القلق ، والقطارُ على الحافة ، والمهوى بعيد ، والصخور فاغرة الأفواه للالتقام ... وما هى إلا أن تحدث الكارثة ، حتى يسود الصمت والهدوء ، وإذا النشرة القصيرة التالية يطالعها القوم على متون الصحف : « سقط قطار الشمس فى بقعة تدنو من إحدى المدن الساحلية . فأودت السقطة بكل من فيه من الركاب ، ثم تعود الحياة سيرتها الأولى ، وإذا القطار المتحطم الطيب الذكر يحل محله قطار شمسى جديد حاملا على مقاعده أزواجا من السياح الجدد ، يمرون بالهاوية الضارية التى أكلت أسلافهم منذ قليل ، فيتمصصون الشفاه أو يتبادلون البسمات !

نجونا من عالم المهاوى والصخور ، وظهرت لنا قرى نرويجية لطاف ، ثم تراءت معالم « نارفيك » . مدينة ساحلية خضراء ، تحف بها غابة كبيرة ، وأمامها الخليج العظيم المشهور بعمقه المسمى « فيورد » أو بالأحرى « فيورد أوفتن » .

وأدى بنا القطار إلى ميناء المدينة ، ذلك الميناء الذى يبدو كأنما شيدته الطبيعة فأحسنت تشييده فى بقعة لها من نفسها حماية

وقد ألفينا شواطىء المدينة مجهزة بأحدث الآلات والمنشآت العصرية لإنتاج الحديد ، « فالمدينة » – فيما يقول أهلها – مدينة يتقدمها وعظمتها لحديد « السويد » ؛ إذ هى موطن مهم من مواطن تصديره إلى شتى البقاع .

هنالك تركنا القطار ، واستوعبتنا سيارةٌ حافلة أوصلتنا إلى رصيف مَرْكب للتعدية ، فاحتوانا نحنُ والسيارة الحافلة ، وعبر بنا جميعا هذا « الفيورد » العظيم . ثم خرجنا من مركب التعدية لتقلنا السيارةُ الحافلة متنزهين بها فى صحبة الخليج ، مُصعدين فى جبل مُشرف عليه .

طال بنا الطريقُ ، ولكنّ المرتقَى سهل ، والبقعة مؤنسة بالمراعى الخضر من حيثما تنظر ، والخليج يستشرف لنا كأنما يتجدّد كلما امتد بنا السير ، والجبال النائية متشامخة أمامنا تكسو رءوسها الثلوج ، كأنها جلال المشيب ، والشلالات لامعة لأعينه كخيوط من الفضة تنساب على السفوح ، وفى جهات عالية تتراءى بحيرات كأنها لآلىء تزين صدور الجبال .

وكان القائمون على الرحلة قد زوَّدوا ركاب قطار الشمس فى

« نارفيك » بثلاث من حسان « النرويج » لينهض بمهمة الترجمة والتعريف ، وهن ذاتُ أدب جم . وإن كن يتمتعْنَ بقسط كبير من الرقة والظرف ، والقدرةِ على إشاعة الطرب والمراح ، فما لبثت السيارةُ الحافلة أن استحالت بفضلهن ملهًى أنيسا لم يعوزه إلا المعازف ، ولا غَرْوَ ألا يشعر الركب بمضى ساعة أو أكثر فى التصعيد على هذا الطريق ! ...

شدّ ما أمتعنى جمالُ هذا « الفيورد » الأخضر ، كأنه نهرٌ مزدهر ، وإنهم فى « النرويج » ليُطلقون هذا الاسم على كل خليج بحرى يقتحمُ الأرض ، ويخترقُ منها المراحل الطوالَ ، فكأن المحيط الأعظمَ يتدسسُ فى خفايا البلاد ... وأمثالُ هذا الخليج كثيرةٌ على شواطىء « النرويج » ، وهى تتفرع فروعا شتى ، متغلغلةً فى مناطقَ صخريةٍ عنيدة ، أو متسللة بين جبالٍ ندية خُضْر .

وقفت بنا السيارة الحافلة فى شبه قمة يقوم عليها فندقٌ رائع الموقع : « الفيورد » العظيم من تحته ، والجبالُ بثلوجها وخضرتها وغاباتها حولَيْه ، وإنه حقا للوحٌ نادر من لوحات الطبيعة الفاتنة

هذا الفندق جديد البناء ، شيد حديثاً على أنقاض فندق هدمه «الألمان» فى غضون الحرب العالمية الماضية ، وما أعجب هؤلاء الألمان إذ يتخذون لوقائع الحديد والنار مثل هذا الموقع الساحر الذى يوحى بالأمن والطمأنينة والسلام ! ...

تناولنا غداءنا فى الفندق ، وترشفنا هنالك أقداح القهوة ثم رجعنا إلى « نارفيك » نجول بأقدامنا فى تلك المدينة التى لم تخلص بعد من آثار الحرب ، وإن كانت يد التعمير والتجميل تعمل فيها لا تهدأ

حقا إن مستوى الحياة فى « النرويج » مستوى طيب ، ولكن عليه طابع التقشف ، فحظه من الترف غير كبير .

عادت بنا الحافلة إلى القطار ، فارتد بنا إلى « السويد » ، مزمعا أن يبيت ليلته فى مدينة من مدنها الصناعية ذات اشتهار ...

اليوم السابع

ذلك هو القطار مستقرٌّ بنا فى مدينة «كيرونا» تلك المدينة العظيمة التى هى موطن لمناجم الحديد. وكان علينا نحن — سكانَ قطار الشمس — فى ليلة يومنا السابع من أيام الرحلة، أن نختارَ بين ثلاث:

فإما كان مَبيتُنا فى القطار، منتظرين إلى الصبح، لنجول جولة نتبين بها معالم المدينة، ونجتلى ما فيها من آثار.

وإما خروجنا كذلك فى الصباح، لنقضى وقتا فى نزهة إلى «الرابدز» على متن قارب بخارىّ يكابد تيّار النهر.

وإما كان خروجنا منذ هذه العشية، نطلبُ الصيد فى بحيرة بجوار موطن لابىٍّ عريق.

واختلفت أهواء الرّفاق، بين هــذه الخُطَط الثلاثِ، فافترقنا ثلاث مجموعاتٍ، لكل منها طريق.

واخترنا نحن الخُطة الأولى، فهى أيسرُ علينا وأحبُّ إلينا

من كلتا الخطتين الأخريين؛ إذ كانتا مغامرتين لا قبل لنا بما تقتضيانه من مشقة ونصب .

أقلتنا السيارة الحافلة فى الصباح تجوب بنا أنحاء المدينة فرأينا مناجم الحديد فسيحة الأرجاء متجهمة ، ولكن هذه المدينة الصناعية التى يعمرها العمال تبدو مشرقة وضاحة الأشجار تزين الطرق ، والنابات متناثرة ، والحدائق كثيرة ، والمنازل العمالية منسقة عليها رونق ، وثمة هضبة نعلوها فتشرف بنا على بحيرة جميلة تتخايل حواليها أشباح الجبال عالية تغطيها الثلوج .

واستجبنا لدعوة كريمة من أستاذة سويدية أن نزور بيتها ونتناول معها قدحاً من القهوة ، وهى تسكن مع زوجها فى مغنى رشيق ، الطبقة الدنيا منه مثابة للتحف ، والطبقة العليا للمقام .

هذه الأستاذة أمرها عجب ، فهى معلمة فى مدرسة لابية ، وهى فنانة تهوى الرسم والتصوير ، وهى فوق ذلك كله تتعشق عشيرة « اللاب » ، ولذلك وقفت جانباً كبيرا من وقتها على دراسة حياتهم فى مجتمعهم الخاص .

حللنا دار الأستاذة الفنانة ، نخفت لاستقبالنا فى ثياب لابيّة وطنية ... سيدة قصيرة القامة ، حمراءُ البشرة ، مشرقة الوجه ، على ثغرها ابتسامة لاتبرح ، وكأنها لفرط شغفها بعشرة «اللاب وحرصها على اتخاذ الزىّ اللابىّ الوطنى ، وما أفادت من خبرة بهذه العشيرة ، قد اكتسبت سحنة هؤلاء اللابيّين الأصلاء ، فلاحت بينهما وبينهم مشابهُ كثيرة ، بل أصبحت منهم فى الصميم .

وقامت على خدمتنا صَبيّة وسيمة المحيّا ، ترتدى ثياب « اللاب » أيضا ، وأخبرتنا ربة الدار بأن هذه الصبية لابية مُعرِقَةٌ ، ولكنها متحضرة فراعنى أنّ سحنتها سويدية على الرغم مما يجرى فى عروقها من دم « اللاب » ، وما يكسوها من زيّهم الوطنى .

واستبدّ بى العجب لسيدة سويدية ، لاتكاد تراها حتى تحكم بأنها من اللابيين ، وصبية لابيةٍ لو طلب إليك أن تقسم على أنها سويدية لأقسمت !

ما أعظم أثر النفس فى تقويم الأجساد والسّحن ، فهذه السيدة

التي هويتْ عشيرة « اللاب » ، وأرادت أن تكون منها وإن لم تكن ، تراها قد انقلبت سحنتُها فإذا هي كما أرادتْ أن تكون ، وتلك الصبيةُ اللابية التي هفتْ روحها إلى أن تكون سويدية متحضرةً لم يعزْ عليها أن تنالَ مطمحَ الروح .

حقــا إن النفس لقادرة على أن تصنع الأعاجيب ، وتأتى بالمعجزات .

نهضنَا نجوبُ الدار فى صحبة الأستاذة الفنَّانة ، فألفينــا الطُرف اللطاف فى كل ركن وعلى كل جدار ... طرف تمثل حياة اللابيين فى مختلفِ مظاهرها ، فتلك أوانيهم وخناجرُهم وتمائمُهم ومنسوجاتهم وسائرُ ما لهم من أثاثٍ ومتاع .

وانبرت الأستاذةُ تشرح لنا كل طرفةٍ تقع عليها العين ، وتتحدث إلينــا حديث أصحابها اللابيين ، فوعت أسماعنا محاضرةً مفيدة مستفيضة . كأننا فى معهد درس وقاعة محاضرات ، وإن خلا الجـوُّ من السآمة التى يشعر بها من يجلس بين أيدى المدرسين والمحاضرين ! ...

هؤلاء اللابيُّون كما أسلفت عليك من أقدم سكان « السويد »

كانوا وثنيين فى عهد غَبَر ، لهم جبالهم المقدسة التى يزلفون إليها القرابين ، ولهم آلهة ينحتونها على أشكال بُدائية من الحجر ، وهم الآن على دين المسيح ، فى كنائس النصارى يتعبدون ، ولكن لهم فى مناطقهم كنائسهم اللابية الخاصة .

وقد نبغ من اللابيين المتحضرين نفر معدودون ، من بينهم فنان كان رساما وكاتبا وفيلسوفا فى آن ... وقد اختص برسم الوعُول قطعاناً وفرادى ، وحذَق تصريف الألوان أيما حذق ، إذا رأيت رسمه لجماعات الوعول فكأنك ترى أفواجا بشرية فى طريق الهجرة ، وإذا شهدت الرسم من بعيد فكأنك تشهد أسرابا من النمل تدبّ على مهاد الأرض ...

هذا الفنان لم ينهج فى رسومه نهج فنان قبله ، ولم ينسج على منوال غيره ، فما كان له من معلم يهديه ، وإنما دفعته الموهبة إلى الخروج ، فخرج بنفسه ، يعلم نفسه ، وإذا هو صاحب تجديد وابتكار .

مضينا بعد الظهر نزور بقعة تاريخية كانت مألفاً لقوم « اللاب » فيما مضى ، ولم يبق منها اليوم إلا كنيسة لابية أثرية . وقد رأى السويديون أن يحيوا ذكرى هذه البقعة ، فأقاموا

بجوار الكنيسة مُتْحفاً حيا من متاحف الهواء الطلق ، تتمثل فيه حياة السويديين القديمة وحياةُ « اللاب » . وهذا المتحف الحي رقعة مسوّرة تحوى بعضَ الأبنية الأثرية ، ومن هذه الأبنية مسكن قديم جعلوه الآن أشبهَ بفندق أوخان ، فيه حُجَر للمبيت بأجر قليل ومنْ طلب الطعام فيه وجده، وذلك المبنى قديم متغلغل فى القدم . طريف فى كيانه الخشبى ، تتسق له أسباب الراحة على النحو العصرى ، ففيه وسائل التدفئة وأدوات الأكل ومُعدات النوم وقد ترشّفنا هنالك أقداح القهوة ، مشفوعة بشذرات من كعك لذيذ المذاق .

ونشطنا إلى التفرج فى غير هذا الفندق أو هذا الخان ، فتوخينا مبنى آخر ليس بأحدث منه عهدا ولا أقل طرافة ، بل يزيدُ عليه أنه باق على حاله ، لم تمسسه يدُ الحضارة العصرية ، وهو يمثلُ داراً ريفية لرجل من سراة الريف السويديين الأقدمين ، من حل بها فكأنما انتقل إلى تلك العهود الخالية ، يشاركُ أهلها حياتهم وما يُزاولون من عيْش ، يأكل فى أوعيتهم النحاسية الساذجة ، وينام فى أسرّتهم التى تشبه صناديق كبيرةً عليها أستارٌ غلاظٌ ،

ويتدفأ بجوار مدفأتهم الضخمة البُدائية ، ويرى كيف يستعملون فرنَ الخبز ، وكيف يطهون الطعام ، وماذا كان لهم من آلة الصيد وعـــدة الخيل ... فلقد توهمت — وأنا فى جوف تلك الدار — أنى أعيش فى ضيافة رجل من سراة الريف فى العهود السوَالف ، أنعم بسذاجة هانئة !

ولما خرجنا إلى الفِـناء وغابت عنا معالمُ تلك الدار،وانبسطت بين أيدينا بعضُ الصحف اليومية بعنواناتهـا التى تحمل مشكلاتِ السياسة وتطاحن الزعماء ، أيقنت أننا قد عدنا سريعا إلى حياتنا العصرية ، نعانى حرب الأعصاب ، وثرثرة الصحف ، فترحمنا على تلك الحياة البريئة الساذجة التى قضيناها فى ضيافة ذلك السرِىّ الريفى القديم !

قصدْنا بعد ذلك إلى منزلِ لابِّى شنوى ، إنه كـثيره من المنازل اللابيِّـة خشبى مستدير عليه طِباقٌ من الطين المخلوط بالعشب وهو فى داخله كشأنه فى أمسه البعيد ، فى وسطه نارٌ توقد للتدفئة وفى سقفه طاقٌ هو النافذة اليتيمة فى المنزل كله ، ولا مقعدَ ولا متكأ ولا سرير ، كل ما هنالك للنوم أغصان من الشجر جافـــة

تنبسط على الأرض ، فأى حشيه أو وسادة هذه التى تقض المضجع ، وتبعث الأرق ؟

أما المنزلُ الصيفى لعشيرة « اللاب» فهو خيمةٌ أو شبه خيمة ، حولها سياج يمنع الحيوان السارب أن يقتحم ، وهذا المنزلُ أظهر سذاجة وأقل تحضُّرا من صنوه المنزل الشتوى .

ورأيتُ عن كثب من هاتين الدارين بعض ظـــلات مربعه ، تقوم كل منهـــا على عمود ، يختزنون فى أعلاها أشتات المئونة ، وما أحقها بأن تسمّى « الصوامع الهوائية » كصوامع القمح والذرة فى ريفنا المصرى ، واللابيّون يتخذون هذه الظلات فى الغابات ، ليصيبُوا منها زادهم وهم على الطريق . وقد أقاموها على الأعمدة لـكى يحموها من عدوان الحيوان .

وثمة خيمة خليقة أن تسمى : مأوى الأرباب ، فقد ضمت آلهـــة « اللاب » فى عصرهم الوثنىّ ، قبل أن يدخلوا فى دين المسيح ، وما هـــذه الآلهة إلا أحجارٌ صمّ غلف لا تنطق لها سمات ، ولا تتميز بها أشكال ؛ إذ لم تُصب من الفن حظًّا قلّ أو كثر .

وغيرَ بعيد من هـــذه الخيمة قواربُ صغار لها أغطية كالصناديق ، وكانت هذه القواربُ تستخدم لنقل الأثاث وما إليه ، تجرُّها الوعول على أرضِ الجليد .

وفى هذه المنطقة اللابية الأثرية ، أقامت « السويد » مدارسها الخاصة بأبناء « اللاب » ، فيها يتعلمون ، ومنها يعودون إلى مواطنهم الأصيلة فى مناطق متفرقة ، إلا قليلاً منهم تستميلُهم الحضارة العصرية ، وتفتنهم عن حياة قومهم « اللاب » .

فرغنا من زيارتنا لذلك المتحف اللابى الحىّ ، ورجعنا إلى قطارنا نأوى إليه ، فالتقَيْنا بمن اختارُوا غـــيرَ خُطتنا فى التنزُّه والارتحال .

فأما الذين ذهبوا منهم إلى « الرابدز » فقد تحدَّثوا إلينا أنهم قضوا قرابة خمس ساعات فى قارب بخارى ساذَج يقودُه نوتيُّون خبرَاء ، قارب عليه دكاك خشبية ليست لها مساندُ ولا ظهور ، وجرى بهم القارب فى نهر يفاجئهم تياره فى الفينة بعد الفينة ، فيعمل النوتيون على أن يحكموا زمام القارب ، حتى لا يعبثَ به التيّارُ ، والركبُ يناوشهم رشاشُ الموج يمنة

ويسرة ، والريح تميد بأجسامهم فيتماسكون ويتساندون ، وهم يتقون وطأة البرد بالأردية الثقال ، حتى يلقى بهم الموج بعد لأى فى أرض جرداء مقفرة ليس بها أنيس ! .

وأما الذين آثروا مغامرة الصيد ، فإنهم خرجوا إليها مع الليل ، يحتذون النعال الغلاظ ، ويحملون المعَاطف والألفعة الواقية من وقع المطر واشتداد الريح ، وجعلوا يسيرون ساعات فى مجاهل من غابات وبطاح تتخللها المناقعُ ، والأرض من تحتهم معشَوشبة لزجة مشبَعَة بالماء ، والجوُّ حوالَيهم يُعربد فيه زفيفُ الهواء ... وأفضى بهم المسير إلى قرية صغيرة من قرى « اللاب » ، فآوتهم تلك الدار اللابية المعهودة ذات الحجرة المستديرة والطَّاق النافذ من السقف ، وجلسوا هنالك للراحة بعض وقت ، يَتَبلغون بشىء من الطعام ، ويترشَّفُون أقداح القهوة ، ويستَدْفئون بالنَّار الموقَدَة ، وقد تجمعوا أمامها مقرورين على الأرض الصُّلبة أوعلى حَشيَّة من يابس الأغصان ، وجوههم تكاد تلفحُها ألسنة النار ، وظهورهم يعبث بها وخْزُ البرد القارس ، فكل منهم كأنما هو

نصفان : نصف فى خط الاستواء ، ونصف على رأس القطب ، فما فى وُسع النـــار أن تشيعَ دفئها فى شتى أرجاء الدار !...

وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم بعوض مخيف كالفراش المبثوث، ينهل من دمائهم ما ساغ له أن ينهل ، وقيــــل لهم إن النهر من مكانهم قريب ؛ فمن شاء أن يصطاد فيه خطا إليه ، والساعة وقتئذ قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، أعنى هـــذا الليل النهارى العجيب الذى لا يغيب فيه ضوءُ الشمس . فلم يهشّ أحد منهم للخروج من أجل الحصول على صيد النهر ، وكيف لهم أن يصطادوا وقد أصبحوا فى حالهم تلك هم السمك فى الحبـــائل والشباك ؟ فليعمروا كـ أوفليشقوا — بنومة ساعة أو بعض ساعة ، يحرسهم ذلك البعوضُ الظامئ إلى ما يجرى فى عروقهم من دماء ، وليثوبوا إلينا راضين من الغنيمة بالإياب !...

قادة الرحلة — رحلة قطار الشمس — لا يتوانون فى توفير ألوان المتع للراكبين المختلفين أهواء ومشارب ، وهم يدبّرون من بين النزهات ما هو ثقيل شاق ، إذ يعلمون أن بين الرفاق من تستهويهم المغامرة وركوب الأخطار ، فهم يطلبونها طلبــــا ،

ويسعون إليها سعيا ، ولا يبتغون بها بدلا ...

هؤلاء لا يقنعون بمرأى كوخ تتمثل فيه حياة قوم « اللاب » ، وإنما يأبون إلا أن يغرزوا الأقدام فى أرض لابيّة لزجة معشوشبة ، ويخوضوا مناقع لابية بنظاهر حولها بعوض لابىّ قارص ، ويدخلوا أكواخا لابية فى جو لاسع وريح عاصف ، ويصطلوا بنار لابية جالسين القرْفصاء ، ويناموا على فراش لابىّ شائك من أغصان الشجر !

وغير هؤلاء جمع لا يرضيهم ولا يشفى غليلهم أن يشهدُوا من بعيد تيارَ الموج المتدفع يتلعب بالقوارب ، فلابد لهم أن يعتلوا من هذه القوارب متونها ، ويترنحوا على دكاكها ، حتى تلقى بهم الأمواج إلى أرض مقفرة لكى يستشعروا رهبة الماء ، ووحشة البقاع الجرداء ! ..

أولئك وهؤلاء يتملكهم حبُّ المغامرة ، فهم يستمرئون متعتهم فى احتمال المشقة ومكابدة العناء ! ... وإن قادة الرحلة ليفطنون إلى ذلك كله فى أنفس الناس ، فيتيحون لكل امرئ من رفقة السفر أن يبلغ هواه ويدرك مناه ! ...

اليوم الثامن

طرق « المسحر » الظريف ُ بابنا ، وهو يترنم بجملته المعهودة :

صباح الخير ... استيقظوا يا سادة ... الفطور معد .

وقفزت من السرير ، وقد تذكرت أن برنامج هذا اليوم الثامن الأخير من أيام رحلة قطار الشمس ، يقتضينا أن نصحو مبكرين : ليطالعنا النهر الذي يحمل كتل الخشب على متنه ، فقد أفرد القوم هذا اليوم لزيارة موطن الخشب ، نعرف منه كيف يحتمله النهر من حيث يقتلع وكيف يفرز في نهاية المرحلة ، وكيف يوزع على أصحابه ، وكيف يجهز بعد ذلك أشكالا مختلفة في مناشير يسمونها : طواحين النشر ؟ ؟

هذا حقا يوم الخشب ... وإن الخشب ليجذب من

غابات عظيمة فى ذلك الإقليم ، فلا غرو أن نرى المناشيرَ ترُصّعُ البقعة أدناها وأقصاها .

بصُرْتُ من النافذة بكتل الخشب تغطى صفحةَ النهر ، فإن العمل فيه يكاد يكون مقصورا على نقل تلك الكتل ، وكأنما هو لها مطيةٌ ذلول لا تكلِ ولا تسأم ، على أنه ساحر المنظر ، لم يشوه جماله ما يحمل ... وما له لا يصبر على أحماله وهى نتاجه من الغابة العظيمة حوله ، فليفسح لها حضنه كما يفسح الأبُ صدره لبنيه ، ولينقلها إلى حيث تؤدى مهمة فى الحياة ، كما هو شأن كل ما فى الحياة من حيوان ونبات وجماد ! ...

ما أروعك أيها النهر ، وأنت تشق الفِجاجَ المتحدرة على جانبيك ، وهى تزهو لك بخضرتها الناضرة ، كأنما كَسَاها بساطٌ من مَخمْل ،

صاح بنا مضَخم الصوت يقول
بعد قليل نقفُ عند الشلال .

وما لبثْنا أن سمعْنا لدَفْقِ الماء هديراً يعلو على ضجيج القطار وهو يسير ، وألفينا القطار يعبُر جسرا على الشلال ،

ثم وقف فى منتصف الجسر ، ليمتعَ الركب هنيهةً بهذا المنظر الطبيعى الأخاذ .

إن الشلال يبدو من حَيِّيَّة ، تحيط به ألفافُ الغابة وكأنه من الغابة نفسها ينبُع ، وإنك لترى ماءه بادىء بدىء يجرى هادىء الجرْية ، حتى إذا أصبح فى البقعة التى يقوم فوقها القطار وجدته قد هَاج وماج ، وأرْغى وأزْبدَ ، وكأنما قد أصابته جِنَّة ، وراح يتلاعب على الصخور هاربا إلى القرار ، ثم إذا هو ينبسط صفحة من رغو أبيض مسترسل فى لهو ومعابثة ؛ كأنه يقهقه حتى يطفو عليه زبَد .

استأنف القطار مسيره حتى بلغ محطةً للتوليد الكهربى على شلال آخر ، بيد أن القوم لم يرْخُوا له العنان كشأن ذلك الشلال الذى فارقناه منذ وقت ، وإنما أرادوا الانتفاع به ، فسيطروا عليه ، وفرضوا له نظاما فى القفز والجَرَيان ، فأذعن وأطاع .

هنالك خرجنا من القطار ، لتقِلَّنا السيارة الحافلةُ ، فعبرت بنا جسراً عظيما ، ثم أخذتْ تصعّد فى الغابة ، ونحن دائماً من النهر على قُرب ، يبدو لنا من خلال الشَّجَر ، ويطالعنا محيّاه حين

تجتاز الحقولَ والسهول .

ووزعت علينا المضيفة الأنيسة كراسات بها ألحان موسيقية ، معلنة فترة إنشاد وترنيم . وكأنها تريد بذلك أن تشعشع فى مفاتن الطبيعة روائعَ الأنغام .

وأشرفنا فى بعض الطريق على منفسح من النهر كأنه فى هيجته بحرٌ مُزْبد . أشعة الشمس تلتمع عليه كأنها سِمْط اللؤلؤ ، والغابات تتعالى على ضفتيه ، ملقية بظلالها حنينا إليه ، والمروج على حافاته تزينها من الأزاهير ألوان ، فسرحت بصرى مسحورا بهذا الموقع الذى تغنّى به الشعراء والكتاب ، وكان لهم مثار وحى وإلهام .

وضقتُ ذرعا بهذه الأغانى والأناشيد ، ترتفع بها أصوات الرفاق فى السيارة الحافلة ، وكدت أناشد هؤلاء الرفاق أن يصمتوا ، فما أحقّ هذه الساعةَ بأن تكون ساعة تعبد وصلاة ، ساعةَ تأمل ومناجاة ... ذلك محرابُ الجمال أمام العيون ، فلننهلْ من روحانيته ما استطعْنا أن ننهل ، حتى تَغمُرَ نفوسَنا طمأنينةٌ وصفاء ! ...

وقفتْ بنا السيارة الحافلة عند فندق ، والساعة منتصف

الحادية عشرة قبل الظهر ،وصاحت بنا المضيفة تدعونا إلى طعام الغَداء ... أفتحسبنا هذه المضيفة الأنيسة مخلاة تحشوها وقتما تشاء ، بما تشاء ؟ فلأضرب عن هذا الغَداء الذى دعتنى إليه فمن دعت ، وليستجب لها من يستجيب .

مضيت أجول حول البلدة جولةً ، فاستبان لى أنها فى مرتفع تنظر منه إلى النهر ، وأنها عامرة بالخُضرة ، زاخرة بالغابات ، كأنما هى حديقة معلقة ، وليس بها من الشوارع إلا شارع واحد صفت فيه الدور والفنادق والحوانيت عن يمين وشمال .

وعدت إلى الرفاق الذين آثروا البقاء فى الفُندُق ليصيبوا غذاء قبل أن ينتصف النهار ، فإذا هم قد فرغوا من طعامهم منذ هنيهة ، وإذا هم قد دعتهم المُضيفة إلى أن يشربوا القهوة على رَبوة يقوم فى ركن منها مشرَب جميل ، فصعدتُ معهم أتملىَّ روعة تلك الربوة التى يكسوها مرْجٌ مزهر ، يتمنى المرء أن يفترشه بعض وقت ، ليسعدَ بنومة طيبة على بساطه الوثير .

صدرَ إلينا أمر المضيفة بأن نفارق هذا الفردوس الموموق ، فانطلقت بنا السيارة الحافلة تجتاز المراعىَ والحقول ، وإذا

الخيول فيها سائبة تمرح ، ما تكاد تشهدنا نمر بهـــا حتى تعدو وراءنا كأنما تشترك مع سيارتنا فى سباق . فأما الأبقار السمان الناصعـــة البياض فكانت تبعثُ إلينا وإلى الخيول من ورائنا نظرات كلها تؤدة وجلال ، ثم لاتلبث أن تنكفىء على العشب غير لاوية على شيء !

وأخذت أبصارُنا أعواداً من الخشب ،مُقامَة كهيئة المحامل، عليها من أضغاث البرسيم كومات عالية ، فالسويدى يعلم أنه الآن فى موسم الزرع والحصاد ، وفصل الدفء والإشراق ، لزام عليه أن يزرع وأن يحصد ، وأن يدخر من هذا البرسيم علوفة لماشيته فى إبان البرْد والثلج والإظلام

وتابعت السيارة الحافلة انطلاقها تنهب الطريق ، ومازال النهر يلوح لنا من بين الشجر ، والمرُوجُ على شاطئيه تترامى ، والدور الريفية تتراءى لنا بشرفات لاتكاد تخلو إحداها من أصُص تتبرج فيها الرياحين ! ...

وبعد لأى وقفت بنـا السيارة عند النهر ، فى مكان قريب من المصب

هنا يقول النهر لمن وقفوا على شاطئه ، من أهل التجارة والصناعة :

دونكم الخشبَ الذى احتملته إليكم ، فتسلموه ...

فلا يلبث هؤلاء أن ينشطوا للعمل ، ولا يلبث النهر أن يودعهم بابتسامة عذبة صافية ، ثم يندفع نحو البحر ليندمج فيه ، وقد تخفف من أحماله التى كانت تضنيه .

مثلْنا أمام النهر نتملاه ، فألفينا الخشب يغطيه من مختلف مناحيه ، حتى لقد أعيانا أن نرى الماء بين هذا السطح الخشبى العائم المتلاحم ، بل لقد خيل إلينا أننا قادرون على أن نعبر النهر بأقدامنا فى غير خشية ولا حَرَج .

على أن هنالك جسرا من الخشب مقاما على قوارب أو ما يشبه القوارب ، ومن هذا الجِسر تتفرعُ جسور صغار أُخَر ، ولكنها على شاكلته ، وحول هذه الجسور المتصل بعضها ببعض ، والمفضى بعضها إلى بعض ، والمتغلغلة إلى مسافة بعيدة من النهر ، نجد الخشب سابحا يدفعه العمال بمزاريقهم لجمعه وتسليمه إلى ذويه .

والنهر فى هذه المنطقة واسعُ العرض ، حتى ليبدو كأنه المحيطُ

الأعظم ، مداه يفوت النظر ، وهـو مقسم أقساما ظاهرة المعالم تبلغ المائة ، ولـكل مشتغل بجلب الخشب قسم خاص به ، وليس للنهر وراء هـذه الأقسام المحتكرة لأصحابها إلا ممرّ صغير يستأثر به لنفسه ...

ومن عَجَبٍ أن الخشب يُرْمى جملة فى النهر بادىء بدء مختلطا بعضه ببعض ، وبعد رحلته الطويلة يسارع إليه ذَوُوه ، فيتسلم كل منهم ما هو له ، آمنا أن يفقد من خشبه شيئا ، غير طامع أن يأخذ من خشب غيره شيئا ، فلكل تاجر علامة خاصة محفورة على الخشب السابح وقد وُزعت علينا ورقة تحمل هذه العلامات التى تشبه الخط الهيرُوغليفىّ أو خطّ الاختزال .

تركنا ميناء الخشب ، إن صح أن نُطلق عليه هـذا الأسمَ ، أسوةً بالاسم المصرى المعروف : ميناءِ البصل ... وذهبنا نستطلع شأن المناشير التى يسمونها الطواحِينَ ، فإذا هى تزحم البُقعة ، وإذا الخشب يجر من الأرض جراً إلى حيث تلتقمـه الآلات المختلفة واحدة إثر أخرى ، وإذا الكتل العَتِيـّـة الضخمة قد أشبعت شقا وقشراً وتفصيلا ، وإذا هى أشكال متباينة بين لوح

رقيق وآخر غليظ ، مربع أو مستطيل ، طويل أو قصير ، وإذا النشارة تلال إلى تلال .

والخشب يخرج من هذه الطواحين مشذبا سويًا على أشكاله المرسومة له ، لتحمله مركباتُ السكك الحديدية إلى البواخر ، فتنقله إلى مختلف البلاد .

وأنت من هذه الطواحين فى مصنع صخم تعج فيه الآلات وتدوّى ، ويموج فيه العمال بين جيئة وذُهوب ، ويغيم جوه بما يتطاير فيه من غبار المناشير ، فلم يكن فى مقدورنا أن نطيل المكوثَ بين أرجائه ، وما أسرعَ أن انصرفنا عنه نطلبُ الهواء الطلق ! ...

ركبنا السيارة الحافلة ، فعبرت بنا جسرا يعدّه القوم من أعظم جسور العالم طولاً وروعة موقع . إذ هو يطولُ حتى يبلغ الميلِ ويشرِف على مباهجَ من صنعه الطبيعة منقطعة النظير .

وأخيرا عدنا إلى قطارنا المحبوب ، نتهيأ فيه لحفلة عَشاء وسهرة ، أو بالأحرى : حفلة ختام وتوديع ... فقد أكمل قطار

الشمس برنامجه ، وأتم مهمته ، وإنه لمنته إلى عاصمة « السويد » في العاشرة من صبح غده .

التأم الجمع على مائدة العشاء في الفندق . فإذا هم قد ارتدوا أفخر ما عندهم من لبوس السهرة ، وقد اختارت المُضيفة ثوبا ورديا زاهيا زادها من بهاء وإشراق ، فأما المُضيف فقد علق على الجانب الأيمن من صدره وساما براقا كافأته به مصلحة السكك الحديدية ، لما أبدى من كفاية وما بذل من مجهود .

كان الأمريكيون أكثر الجمع ، وثمة سيد كندى يمثل العنصر الإنجليزى أو الامبراطورية البريطانية على الأصح ، وسيد أسبانى بلغ سن التقاعد الحكومى ، وسيدة فرنسية مرحة أدبر عنها عصرُ الشباب ، وثمة آخرون غيرُ هؤلاء وكنا نحن المصريين أربعة ، رجلين وزوجتيهما .

طفقنا نطعَم ... وتتابع شربُ الأنخاب ، هذه كأسٌ في صحة الميمنة ، وتلك كأس في صحة الميْسرة ، وثالثة في صحة من هو على مقربة ، ورابعة في صحة من على مَبْعَدة ، وأخرى في صحة الشمل الجميع !

وشاعت بين الرفاق روحُ التأنّس والمطايبة ، وقام الخطباء يتقارضون التحايا . وبرزت آلةُ التسجيل تُثْبِت كل ماانفرجت عنه الشفاه ، فلم تدع ضحكة أودُعابة إلا أحْصَتْها ، ولم تدعْ شيئاً من هفواتِ الخَطابَة إلا دَوَّنَتْه !...

وما إن أوشكت الحفلةُ على الإنتهاء ، حتى ألفينا المضيف يترنح من شُرب الأنخاب جريا على عاداتهم فى بلادهم ، وهو يقول فى بَهْجَةٍ عارمة :

من تتمَّة برنامجنَا أن ينهضَ لتقبيلى كلُّ من ضم الحملُ من النساء !

وتعالى التصايح ، وكان المضيف فى المرحلة الأخيرة من مراحل الشباب ، يمتاز باللباقة والظَّرف ، فكيف يُلام فيما طلب ، وقد كان حفيًّا بالرُّفقة طوال الرحلة ؛ لم يدَّخر وسعا فى توفير الراحة لهم على مدَى الطريق ؟

لم يعرفْ للمُضيف هذا الحق إلا بعضُ سيدات القطارِ المُوغلات فى السن ، فانهَلْن على وجهه تقبيلا ، كأنما يغتَنِمْن الفرصةَ ، وخرج الرجلُ من مَعْمَعة التقبيل

مرصَّعَ الوجهِ بالوَسَمَات الحُمر ... وضج الجمع بالهُتاف والتصفيق .

وأحس السيدُ المضيف أن وسامه ليس فى مكانه من صدره ، فبعثرَ نظراته يتفقده ، ونفسِى تحدثنى بأن أقول له :

خفف عنكَ ، ولا تعبأ بِوسَامك المفقود ، وما أحراك بأن تتركه لقطةً لمن يريد ... فأنت الآن قد نلتَ أوسمةً من انفَسَحار ، وهدتك إياها شفاهٌ ناعماتٌ ، وإن كنّ لعجائزِ النســـاء ! ...

تلك معاشاتهم ومداعباتهم ... وفرق بين هذا وبين ما نحن عليه فى شرقنا الديِّن المتحفظ ، الحريص على العادات المتمسك بالتقـــاليد ! ...

فاهنأ أيها الشرق ! ... إنك حقا مهد الفضائل ومهبط الديانات ، وفيك قداسة وطهارة ، وأرضك بلا ريب أرض المعاد ! ...

فهرس

أحدث مؤلفات « محمود تيمور »

أ ـ مجموعات قصصية :

١ ـ كل عام وأنتم بخير
٢ ـ مكتوب على الجبين
٣ ـ شفاه غليظة
٥ ـ إحسان لله
٤ ـ شباب وغانيات
٦ ـ فرعون الصغير
٧ ـ أبو الشوارب
٨ ـ أبو على الفنان
٩ ـ زامر الحى
١٠ ـ قلب غانية
١١ ـ ثائرون
١٢ ـ دنيا جديدة
١٣ ـ نبوت الخفير
١٤ ـ تمر حنا عجب

ب ـ قصص مطولة :

١ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
٢ ـ سلوى فى مهب الريح
٣ ـ نداء المجهول
٤ ـ شمروخ
٥ ـ حلوهس « تحت الطبع »

جـ ـ صور وخواطر :

١ ـ ملامح وغضون
٢ ـ الى الإنسان
٣ ـ شفاء الروح
٤ ـ عطر ودخان

د ـ رحلات :

١ ـ أبو الهول يطير
٢ ـ شمس وليل

هـ ـ قصص تمثيلية :

١ ـ صقر قريش
٢ ـ سهاد أو اللحن التائه
٣ ـ المنقذة وحفلة شاى
٤ ـ المخبأ رقم ١٣
٥ ـ المزيفون
٦ ـ فداء
٧ ـ حوالى
٨ ـ أبو شوشة والموكب
٩ ـ قنابل
١٠ ـ حواء الخالدة
١١ ـ اليوم خمر
١٢ ـ ابن جلا
١٣ ـ أشطر من إبليس
١٤ ـ كذب فى كذب

و ـ دراسات لغوية وأدبية :

١ ـ مشكلات اللغة العربية
٢ ـ دراسات فى القصة والمسرح